جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

قضايا إسلامية
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربى

فتنة التكفير

بين

الشيعة .. والوهابية .. والصوفية

أ.د. محمد عمارة

القاهرة
ذو الحجة ١٤٢٧هـ - ديسمبر ٢٠٠٦م

العدد (١٤٢)

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

قضايا إسلامية
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربى

فتنة التكفير
بين
الشيعة.. والوهابية.. والصوفية

أ.د. محمد عمارة

العدد (١٤٢)

القاهرة
ذو الحجة ١٤٢٧هـ - ديسمبر ٢٠٠٦م

يشرف على إصدارها

الدكتور/ محمود حمدى زقزوق

وزير الأوقاف

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور/ عبدالصبور مرزوق

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية





كلمــــــات

* يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينـــوا ولا تقولـــوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعنـــد الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كـــان بمـــا تعملون خبيرا ﴾ (١) .

* ويقول الإمام القرطبى (٦٧١هـ / ١٢٧٣م) فـــى تفســير هـــذه الآية الكريمة : " إن فى هذا التوجيه الإلهى من الفقه باب عظيم ، وهـــو أن الأحكام تناط بالمظان والظواهر ، لا على القطع واطلاع السرائر ، فـــالله لم يجعل لعباده غير الحكم بالظاهر " (٢) .

* وعن أسامة بن زيد ــ رضى الله عنه ــ قال : " بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية فصبحنا الحُرُقات (مكان) من جهينة ، فـــأدركتُ رجـــلاً ، فقال : لا إله إلا الله ، فطعنته . فوقع فى نفسى من ذلك ، فذكرته للنبى ﷺ فقال : " أقال لا إله إلا الله ، وقتلته " ؟!

قال ، قلت : يا رسول الله ، إنما قالها خوفا من السلاح .

---

(١) النساء : ٩٤ .

(٢) (الجامع لأحكام القرآن) جـ٥ ، ص٣٣٩، ٣٤٠ ، طبعة دار الكتب المصرية .

قال ﷺ : [أفلا شققت عن قلبه لتعلم أقالها أم لا "؟! .. فما زال يكررها حتى تمنيتُ أنى أسلمت يومئذ] [1] .

* وفى شرح هذا الحديث ، يقول الإمام النووى (٦٣١، ٦٧٦هـ / ١٢٣٣ ، ١٢٧٧م) : " إنما كُلِّفت بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه " .

* ويقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٥٠ ، ٥٠٥هـ / ١٠٥٨ ، ١١١١م) : " إنه لا يسارع إلى التكفير إلا الجهلة .. وينبغى الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلا ، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة ، المصرحين بقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، خطأ والخطأ فى ترك ألف كافر أهون من الخطأ فى سفك محجمة من دم مسلم " [2] .

* ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦،١٣٢٣هـ / ١٨٤٩،١٩٠٥م) : " إن الله لم يجعل للخليفة .. ولا القاضى .. ولا للمفتى .. ولا لشيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام .. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه ، أو ينازعه طريق نظره ..

---

(١) رواه مسلم ، وأبو داود ، وابن ماجة ، والإمام أحمد .

(٢) (الاقتصاد فى الاعتقاد) ، ص١٤٣ ، طبعة مكتبة صبيح ، ضمن مجموعة ، القاهرة بدون تاريخ .

فليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير والتنفير عن الشر ، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم ..

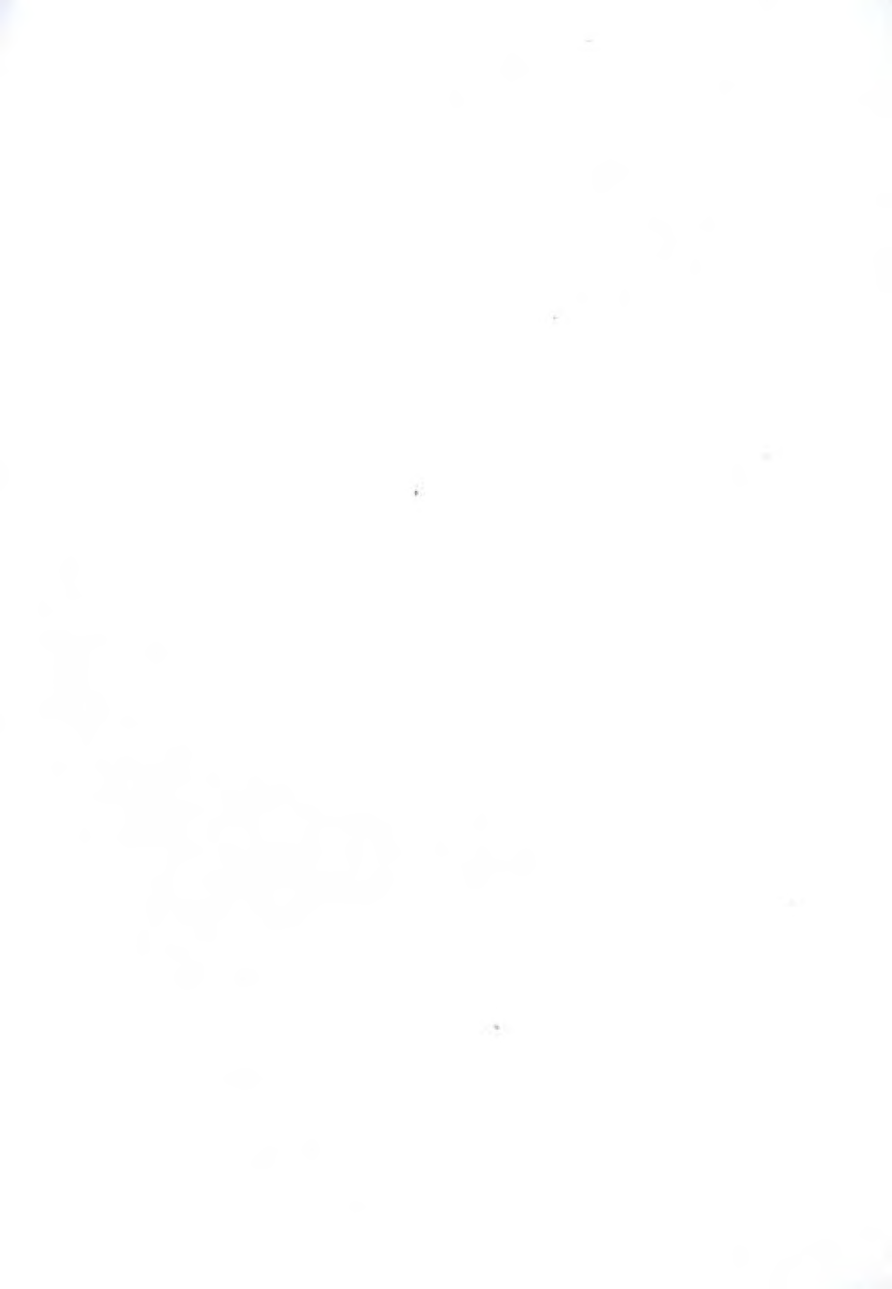
وليس لمسلم ، مهما علا كعبه فى الإسلام ، على آخر ، مهما انحطت منزلته فيه ، إلا حق النصيحة والإرشاد ..

ولقد اشتهر بين المسلمين وعُرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ، ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حُمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر .. "[1] .

هكذا أعلن الإسلام ــ من خلال " البلاغ القرآنى " .. و " البيان النبوى " للبلاغ القرآنى .. ومن خلال الفكر الإسلامى ــ ضرورة صيانة الإيمان عن " التكفير العبثى " و " عبث التكفيريين " ! .

المؤلف

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ ٣ ، صـ ٢٨٣ ــ ٢٨٩ ، دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .



- ١ -

تمهيد

على النطاق العالمى ، وفى مختلف القارات ، تتوجه الأمم والشعوب إلى التقارب والتساند والتضامن والاتحاد .. وذلك انطلاقًا من الضرورات الحياتية لهذه الأمم والشعوب ، واستجابة للحاجات المادية التى تستلزم تكامل الإمكانات والثروات ومشروعات التنمية .. ولمواجهة التحديات ـ الداخلية والخارجية ـ التى تواجه هذه الأمم والشعوب ، إن فى مجالات " الأمن " أو فى مجالات " الاقتصاد " ..

وإذا كانت هذه الضرورات والحاجيات المادية والدنيوية " هى التى تدفع هذه الأمم والشعوب إلى التقارب والتضامن والتساند والاتحاد ، رغم ما بينها من اختلافات وتباينات دينية وثقافية ولغوية وقومية .. بل ورغم ما فى تاريخها ـ البعيد والقريب ـ من حروب وصراعات .. فإن الحال مع شعوب الأمة الإسلامية ـ فى ضوء هذه " الظاهرة العالمية " يدعو إلى الأسى والاستغراب ! ..

* فالمسلمون أمة واحدة .. قرر ذلك قرآنهم الكريم ، الذى هو البلاغ الإلهى الذى يحفظونه ، ويقدسونه ..وهم يتلونه فى صلواتهم آناء الليل وأطراف النهار يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة

وأنا ربكم فاعبدون ﴾ [١] . ﴿ وإن هذه أمتكم أمـــة واحـدة وأنـا ربكـم فاتقون﴾ [٢] .

ووحدة هذه الأمة ، وما تثمرها من ألفة وائتلاف هي " إرادة إلهيـة " و " صناعة ربانية " ..وليست مجرد " نزوع بشـري دنيـوي " .. ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبـالمؤمنين * وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بيـن قلوبـهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ [٣] .

* وتاريخ هذه الأمة الإسلامية شاهد صدق ، يعلن بكل ألسنة الحـال والمقال أن وحدتها هي التي جعلتها ــ حتى عندما كـانت فئـة قليلـة ــ تزيل " القوى العظمى " التي قهرت الشرق ونهبته لأكثر من عشرة قـرون ــ قوى الفرس والروم ــ وتفتح في ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومـان في ثمانية قرون ! ..وتبني الحضارة الوسـطية المتوازنـة التـي أنـارت الدنيا وعلمت الشعوب ، وجعلت المسلمين العالم الأول على ظـهر هـذا الكوكب لأكثر من عشرة قرون ! .

* وهذه الوحدة ، هي ذاتها التي مكنت هذه الأمة من قهر التتـار ــ الذين دوخوا الشعوب وأبادوا العمران ــ وقهروا الصليبيين الذيـن مثلـت

---

(١) الأنبياء : ٩٢ .

(٢) المؤمنون : ٥٢ .

(٣) الأنفال : ٦٢، ٦٣ .

حملاتهم الكهنوتية الاستيطانية أولى الحروب العالمية التي استمرت قرنين من الزمان (٤٨٩ ــ ٦٩٠هـ / ١٠٩٦ ــ ١٢٩١م) ..

* ومع الفريضة الإلهية .. ومع شهادة التاريخ .. فإن واقع هذه الأمة الإسلامية يصرخ بأعلى الأصوات ..

إن تمزق هذه الأمة ، وغيبة التضامن والتساند والتكامل والاتحاد عن شعوبها وأوطانها هو الذي مكّن ويمكّن منها الأعداء وشذاذ الآفاق ! فثرواتها منهوبة .. وأرضها ترزح تحت نير القواعد العسكرية الأجنبية .. وبحارها ومحيطاتها تسرح وتمرح فيها الأساطيل المعادية ..

* * *

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد علمنا في قرآنه الكريم أن " التداول سنة من سنن الله في الاجتماع الإنساني ، وعبر تاريخ الأمم والحضارات « .. وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » [1] . « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » [2] .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد علمنا أن هذا " التداول " هو الذي يجعل خط سير التاريخ يأخذ شكل " الدورات " .. فكما يتم التداول بين الليل والنهار ، كذلك يتم التداول بين العدل والجور .. وبين الصعود والهبوط ..

---

(١) آل عمران : ١٤٠ ــ ١٤١ .

(٢) محمد : ٣٨ .

وبين التقدم والتخلف .. وبين النهوض والانحطاط .. وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : [لا يلبث الجور بعدى إلا قليلا حتى يطلع ، فكلما طلع من الجور شئ ذهب من العدل مثله حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره ، ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل ، فكلما جاء من العدل شئ ذهب من الجور مثله ، حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره] [1].

إذا كان الحال كذلك .. وإذا كان الرسول ﷺ قد علمنا أن " الخير فىّ وفى أمتى إلى يوم القيامة " .. وأن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة [لا تجتمع أمتي على ضلالة] [2].

فإن على أولى العزم والهمة من العلماء والمفكرين المرابطين على ثغور الإسلام أن يجاهدوا فى سبيل توحيد أمة الإسلام ، لتتكامل أوطان دار الإسلام ، ولتتحرر أرضنا وعبادنا وثرواتنا ومقدراتنا ومقدساتنا ، وليتولى أمرنا من ينتمون إلى هويتنا ، ويمنحون كامل الولاء لهذا الدين ، الذى جمع المؤمنين به على هذه الجوامع الخمسة :

١ـ وحدة العقيدة .

٢ـ وحدة الشريعة .

٣ـ وحدة الحضارة .

٤ـ وحدة الأمة .

٥ـ وحدة دار الإسلام .

---

(١) رواه الإمام أحمد

(٢) رواه الدارمي

وإذا كانت " التعددية " وكان التمايز والاختلاف ــ في إطار وحــدة هذه الجوامع الحصينة ــ هي " نعمة " من نعم الله التي جاء بها الإســلام .. فإن " النقمة " إنما تتجسد في الخلاف الذي يجعل بأس المسلمين بينهم شديدا .. وفي مقدمة أسباب هذه " النقمة " " نزعة التكفير " التي تفصم وحدة الأمة ، وتفصم العرى والوشائج التي ألف بها الإسلام بين قلوب المسلمين ..

لقد رسم القرآن الكريم صورة هذه الأمة ، كما أرادها الله سبحانه وتعالى عندما قال : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ [1] .

أما إذا شاعت " نزعة التكفير " بين مذاهب الأمة وفرقها وتياراتها ، فإن الباب سينفتح واسعا أمام الاختراقات المعادية التي نشهد الكثير منها هذه الأيام في العديد من بلاد الإسلام .. بل سيصبح فرقاء من هذه الأمة أشداء على أمتهم رحماء على أعدائها .. ومتحالفون مع هؤلاء الأعداء !! .

إن " سفينة " الأمة الإسلامية تتناوشها الأمواج العاصفة في محيط عالمي أعلنت الفرعونية والقارونية الغربية فيه الحرب الصليبية على الإسلام وأمته وحضارته وعالمه ..

وإن مذاهب هذه الأمة الإسلامية هي " الألواح " المكونة لهذه " السفينة " .. فهي لبنات عقل الأمة ووجدانها ، المحركة لعامتها وجمهورها ..

---

(1) الفتح : ٢٩

وصدق رسول الله ﷺ إذ يعلمنا منهاج الحفاظ على " سفينة الأمـة " فيقول [مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها كمثل قوم استهموا فـي سفينة في البحر ، فأصاب بعضهم أسفلها وأصاب بعضهم أعلاها ، فكـان الذين في أسفلها يصعدون فيستقون الماء فيصبون على الذين في أعلاها فقال الذين في أعلاها : لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا ، فقـال الذيـن فـي أسفلها : فإننا ننقبها من أسفلها فنستقي . قال : [أي الرسول ﷺ : فـإن أخذوا على أيديـهم فمنعوهـم نجـوا جميعـا ، وإن تركوهـم غرقـوا جميعًا] [1] .

وهكذا يصنع " التكفير " عندما يخرق وحدة الأمة ، ويفكك مكونـات " سفينتها " بينما تتناوشها الأمواج والعواصف في محيط قد أعلنت قـواه الكبرى الحرب الضروس على الإسلام والمسلمين .. ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا ﴾ [2] .

لذلك .. ولمعالجة هذه النزعة التدميرية ــ نزعـة التكفير لأهـل القبلة ــ ولمواجهة هذه الفتنة التي كانت قابعة في بطون بعـض الكتـب المذهبية .. وفي عقول بعض الذين يرتزقون من التعصـب المذهبـي ــ والتي أشاع الإعلام المعاصر بثورة الاتصالات ــ فاحشتها بيـن العامـة والجمهور .

---

(١) رواه البخاري والترمذي والإمام أحمد .

(٢) الكهف : ٧٩ .

ولمعالجة هذه " النزعة .. وهذه الفتنة " يجب أن يتداعى العلماء والمفكرون المرابطون على ثغور وحدة الإسلام وأمته وحضارته ..

وفى سبيل ذلك يصدر هذا الكتاب .الذى نسأل الله سبحانه وتعالى : أن يتقبله خالصا لوجهه .. وأن ينفع به .. إنه سبحانه أفضل مسئول وأكرم مجيب ...

- ٢ -

حتى يكون التقريب حقيقيًا

فى الحديث عن التقريب بين المذاهب الإسلامية ، هناك خلط بين المفاهيم المرادة من وراء المصطلحات التي يستخدمها الباحثون فى هذا الميدان .. " فالتقريب " بين المذاهب غير " التوحيد " للمذاهب .. وكلاهما متميز عن " احتضان " جميع المذاهب والاستفادة من الملائم فى أحكامها واجتهادات مجتهديها .

ثم إن " المذاهب قد يراد بها " المذاهب الفقهية " .. وقد يراد بها " المذاهب الكلامية " لذلك ، لابد من البدء بتحديد وتحرير مضامين ومفاهيم كل مصطلح من هذه المصطلحات ..

* " فالتقريب " : هو الانطلاق من تمايز المذاهب المتعددة والمختلفة ، والحفاظ على تمايزها واختلافها ، مع العدول عن نفى مذهب للمذاهب الأخرى ، بالتعصب لمذهب واحد ، ورفض ما عداه .. فهو ـ التقريب ـ تعايش بين المذاهب المختلفة ، مع اكتشاف الإطار العام الجامع لها ، ومناطق الاتفاق بينها ، وتحديد مناطق التمايز والاختلاف .

* أما " التوحيد " بين المذاهب : فإنه يعنى دمجها جميعًا في مذهب واحد ، ونفى قاعدة التعدد والتمايز والاختلاف ..

* وبين هذين المصطلحين يأتى " الاحتضان " والاستفادة من المذاهب المختلفة والمتمايزة ، باعتبارها اجتهادات إسلامية فى إطار علم

واحد وحضارة واحدة ودين واحد ، والنظر إلى الأحكام التى أثمرتها الاجتهادات المذهبية المختلفة باعتبارها التراث الواحد للأمة الواحدة ، ومن ثم الاستفادة بالملائم منها ، الذى يلبى حاجات تحقيق المصالح والضرورات المتجددة بحكم تمايز الزمان والمكان وتنوع العادات والتقاليد والأعراف .. أى توسيع دائرة الترجيح بين الأحكام والاجتهادات من نطاق المذهب الواحد إلى جملة المذاهب كلها ومفهوم " الاستحسان " هذا من الممكن أن يكون ثمرة من ثمرات " التقريب " ..

* أما مصطلح " المذاهب " ، فإنه يطلق على المذاهب الفقهية ، التى هى علم الفروع واجتهادات الفقهاء فى إطار الشريعة الإسلامية الواحدة التي هي وضع إلهى ثابت عبر الزمان والمكان .. وقد يطلق هذا المصطلح " المذاهب " على المذاهب الكلامية ، أى التصورات والاجتهادات التى أبدعها علماء أصول الدين فى إطار العقائد الإسلامية ، وخاصة " الألوهية " وصفات " الذات الإلهية " .. و " النبوات والرسالات " وما يتعلق بها من المعجزات .. و " فلسفة العلاقة بين الحق والخلق " ، وما يتعلق بها من مكانة الإنسان فى الكون ، وأفعال هذا الإنسان .. إلخ ..

هذا عن ضبط مفاهيم ومضامين مصطلحات هذا المبحث من مباحث الفكر الإسلامى .

* * *

أما عن التاريخ الحديث للجهود والدعوات التى بذلت وقامت للتقريب بين المذاهب الفقهية الإسلامية بهدف الخروج من التعصب لواحد منها ضد ما عداه ، والاستفادة من كل الاجتهادات فيها ، لتلبية احتياجات التشريع

للمستجدات العصرية ، فلعل دعوة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) فى التقرير الذى كتبه لإصلاح القضاء الشرعى ـ أن تكون أبرز هذه الدعوات فى عصرنا الحديث . لاحتضان كل مذاهب الفقه الإسلامى ، والاستفادة من اجتهاداتها فى القضاء والتقنين الحديث لفقه الشريعة الإسلامية .. فلقد كانت الدولة العثمانية (٦٦٩ ـ ١٣٤٢هـ / ١٢٧٠ ـ ١٩٢٢م) تلتزم المذهب الحنفى وحده ، وبفقيه وحده يحكم القضاء ويفتى المفتون فى ولاياتها ، رغم تمذهب الناس فيها بالمذاهب السنية الأربعة : ـ الحنفى .. والمالكى .. والشافعى .. والحنبلى .. وللمذهب الحنفى وحده تم التقنين فى " مجلة الأحكام العدلية " سنة ١٢٨٦هـ ، سنة ١٨٦٩م .. فلما درس الإمام محمد عبده حال القضاء الشرعى بمصر ، دعا فى التقرير الذى كتبه ـ فى نوفمبر سنة ١٨٩٩م ـ إلى إصلاح حال هذا القضاء وفقيه .. ودعا إلى احتضان كل المذاهب الفقهية والاستفادة من اجتهادات جميع مجتهديها ، لما فى ذلك من فتح باب الاجتهاد بالترجيح بين الأحكام جميعها ، والتيسير على الناس ، وتلبية حاجات المستجدات [١] .

ولقد كانت حركة التقنين للفقه الإسلامى بمصر ، فى مقدمة الحركات التى وضعت دعوة الإمام محمد عبده فى الممارسة والتطبيق .. ففى التعديلات التى أُدخلت على بعض مواد قوانين الأسرة ـ الأحوال الشخصية ـ تمت الاستفادة من المذاهب الفقهية المختلفة ، بما فى ذلك

---

(١) (الأعمال الكاملة) ج٢ ، ص٢٠٩ ـ ٢٨٨ .

المذهب الجعفرى ــ للشيعة الإثنى عشرية ــ والمذهب الزيدى ــ للشيعة الزيدية ..

ولما قامت مصر بإصدار موسوعة الفقه الإسلامى ــ موسوعة جمال عبد الناصر ــ اعتمدت كل المذاهب الفقهية الموثقة مصادرها ، واحتضنت أحكامها واجتهادات مجتهديها جميعا ــ وهى المذاهب السنية الأربعة .. مع المذهب الجعفرى ، والمذهب الزيدى ، والمذهب الإباضى ، والمذهب الظاهرى .. فكانت " للفقه المصرى " ــ إذا جاز التعبير ــ الريادة فى انتهاج هذا الطريق ، الذى لا يكتفى ، فقط ، " بالتقريب " بين المذاهب الفقهية ، أى رفض التعصب لمذهب واحد ضد ما عداه ، وإنما تجاوز " الموقف المصرى " هذا " التقريب " إلى " احتضان " كل المذاهب ، والعمل على الاستفادة من الملائم الملبى لاحتياجات الأمة ومستجدات العصر من اجتهادات المذاهب الفقهية جميعها ..

* * *

وفى أربعينيات القرن العشرين ، قامت فى مصر " جماعة التقريب بين المذاهب " مركزة جهودها على مذاهب السنة والشيعة الإمامية بوجه خاص ..

ولقد رأس هذه الجماعة الزعيم المصلح محمد علي علوبة باشا (١٢٩٢ ــ ١٣٧٥هـ / ١٨٧٥ ــ ١٩٥٦م) .. وكان فى مقدمة مؤسسيها والعاملين فى ميدان جهودها الفقهية والفكرية الأئمة والعلماء الأعلام : الشيخ عبد المجيد سليم (١٢٩٩ــ ١٣٧٤هـ) والشيخ محمد مصطفى المراغى (١٢٩٨ ــ ١٣٦٤هـ / ١٨٨١ ــ ١٩٤٥م) والشيخ

مصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ ــ ١٣٦٦هــ / ١٨٨٥ ــ ١٩٤٦م) والشيخ محمود شلتوت (١٣١٠ ــ ١٣٨٣هــ / ١٨٩٣ ــ ١٩٦٣م) والشيخ محمد المدنى (١٣٢٥ ــ ١٣٨٨هــ / ١٩٠٧ ــ ١٩٦٨م) والشيخ على الخفيف (١٣٠٨ ــ ١٣٩٨هــ / ١٨٩١ ــ ١٩٧٨م) والشيخ عبد العزيز عيسى (١٣٢٧ ــ ١٤١٥هــ / ١٩٠٩ ــ ١٩٩٤م) والشيخ حسن البنا (١٣٢٤ ــ ١٣٦٨هــ / ١٩٠٦ ــ ١٩٤٩م) والشيخ سيد سابق .. وغيرهم من أئمة علماء السنة .

كما ضمت هذه اللجنة ــ فى إطار " دار التقريب " ــ كوكبة من كبار علماء الشيعة الاثنى عشرية .. من مثل آية الله أقاحسين البروجردى .. والسيد محمد تقى الدين القمى ــ الذى تولى الأمانة العامة للجماعة ــ والسيد محمد الحسينى آل كاشف الغطاء . والسيد شرف الدين الموسوى .. والسيد محمد جواد مغنية . والسيد صدر الدين شرف الدين .. وغيرهم .

وكانت مجلة " رسالة الإسلام " لسان حال هذه الجماعة ، من أبرز المنابر الفكرية التى تجسدت فيها الجهود التى بذلت فى هذا اللون من التقريب بين المذاهب الإسلامية .. وفى إزالة الشبهات والعقبات من ميادين العلاقة بين السنة والشيعة على وجه الخصوص ..

كذلك كانت جهود الشيخ محمود شلتوت من أبرز ما تمخضت عنه اجتهادات هذا اللون من التقريب بين المذاهب الفقهية .. فلقد كتب عن مقاصد هذه الدعوة ، وجهود هذه الجماعة فقال :

" إن دعوة التقريب هى دعوة التوحيد والوحدة ، هى دعوة السلام والإسلام .. كنت أود أن أستطيع تصوير فكرة الحرية المذهبية الصحيحة

المستقيمة على نهج الإسلام ، والتي كان عليها الأئمة الأعلام في تاريخنا الفقهي ، أولئك الذين كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة ، ويربأون بدين الله وشريعته عن الجمود والخمول ، فلا يزعم أحدهم أنه أتى بالحق الذي لا ريب فيه ، وأن على سائر الناس أن يتبعوه ، ولكن يقول : " هذا مذهبي ، وما وصل إليه جهدي وعلمي ، ولست أبيح لأحد تقليدي واتباعي دون أن ينظر ويعلم من أين قلت ما قلت ، فإن الدليل إذا استقام فهو عمدتي ، والحديث إذا صح فهو مذهبي " .

" ولقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم ، وأسهمت منذ أول يوم في جماعتها ، وفي وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة ، ثم تهيأ لي بعد ذلك ، وقد عهد إلي بمنصب مشيخة الأزهر ، أن أصدرت فتواي في جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول ، المعروفة المصادر ، المتبعة لسبيل المؤمنين ، ومنها مذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية .. وقرت بهذه الفتوى عيون المؤمنين المخلصين الذين لا هدف لهم إلا الحق والألفة ومصلحة الأمة . وظلت تتوارد الأسئلة والمشاورات والمجادلات في شأنها وأنا مؤمن بصحتها ، ثابت على فكرتها ، وأؤيدها في الحين بعد الحين فيما أبعث به من رسائل إلى المتوضحين ، أو أرد به على شبه المعترضين ، وفيما أنشئ من مقال ينشر أو حديث يذاع أو بيان أدعو به إلى الوحدة والتماسك والاتفاق حول أصول الإسلام ، ونسيان الضغائن والأحقاد ، حتى أصبحت ـ والحمد لله ـ حقيقة مقررة تجري بين المسلمين مجرى القضايا المسلمة ، بعد أن كان المرجفون في

مختلف عهود الضعف الفكرى والخلاف الطائفى والنزاع السياسى ، يثيرون فى موضعها الشكوك والأوهام بالباطل ، وهـا هـو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة . فيقرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية سنيّها وشيعيّها ، دراسة تعتمد على الدليل والبرهان ، وتخلو من التعصب لفلان وفلان " [1] .

لقد سئل الشيخ محمود شلتوت ــ وهو الإمام الأكبر شيخ الأزهر :

" إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكى تقع عباداته ومعاملاته على وجه صحيح ، أن يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة ، وليس من بينها مذهب الشيعة ، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأى على إطلاقه فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإثنا عشرية مثلاً ؟ " .

فكان جواب الشيخ شلتوت على هذا السؤال :

" إن الإسلام لا يوجب على أحد اتباع مذهب معين ، بل نقول : إن لكل مسلم الحق فى أن يقلد بادئ ذى بدء أى مذهب من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً ، والمدونة أحكامها فى كتبها الخاصة ، ولمن قلد مذهباً من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره ــ أى مذهب كان ــ ولا حرج عليه فى شئ .

---

(١) على عبد العظيم (مشيخة الأزهر) ج٢ ، ص١٨٧ ، ١٨٨ ، طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩هـ ، سنة ١٩٧٩م .

إن مذهب الجعفرية ، المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية ، مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة . فينبغى للمسلمين أن يعرفوا ذلك ، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة ، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب ، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى ، يجوز – لمن ليس أهلاً للنظر والاجتهاد – تقليدهم والعمل بما يقررونه فى فقههم ، ولا فرق فى ذلك بين العبادات والمعاملات "[1] .

ذلك هو نص فتوى الشيخ شلتوت فى التقريب بين المذاهب الفقهية .. وفى جواز التعبد والتعامل وفق أحكامها جميعا دون تعصب لمذهب ضد ما عداه .. وجواز التعبد والتعامل – من قبل أهل السنة – وفق فقه المذهب الجعفرى للشيعة الإمامية الإثنا عشرية على وجه التحديد ..

ورغم أن هذه الفتوى قد وجدت صدى عظيما وواسعا ومستمرا فى الدوائر الشيعية ، ورفعت من مقام الشيخ شلتوت فى هذه الدوائر ، حتى لقد تم الاحتفال به وبآية الله البروجردى – فى طهران سنة ٢٠٠١م . ولقد ترجم علماء الشيعة فتواه هذه إلى مختلف اللغات .. إلا أنه لم تصدر فتوى مناظرة لها من أى مرجع من مراجع الشيعة ، ولم يفت واحد من هؤلاء العلماء الأعلام بجواز تعبد وتعامل المسلم الشيعى وفق فقه المذاهب الفقهية السنية ، حتى يكون التقريب متبادلاً بين الأطراف المتعددة ، وليس من طرف واحد لحساب الطرف الثانى !..

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ١٨٨ .

بل إن دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية الصادر بعد الثورة الإسلامية ــ قد ذهب إلى الحد الذي جعل المذهب الجعفري وحده هو مذهب الدولة ، ونص على أن المادة التي تقرر ذلك لا يجوز تغييرها فيما يطرأ على مواد هذا الدستور من تغييرات ! .. الأمر الذي يجعل قضية التقريب بين المذاهب الفقهية قائمة على ساق واحدة ، ومن طرف واحد حتى كتابة هذه السطور ! ..

* * *

وإذا كانت لنا من ملاحظات على هذه الجهود العلمية العظيمة التي بذلتها جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، والتي أثمرت ثمرات طيبة في ميدان التقريب بين السنة والشيعة ــ وهي الجهود التي يحاول مواصلاتها قدر الإمكان .. وعلى نحو من الأنحاء " المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب " ــ بطهران ــ فإن هذه الملاحظات يمكن إجمالها في هذه النقاط :

أولاً : إن توجيه جهود التقريب بين المذاهب الإسلامية إلى التقريب بين المذاهب الفقهية ، هو جهاد في غير الميدان الحقيقي الأولى بالجهاد .. أو ــ على أحسن الفروض ــ هو جهاد في الميدان الأصيل ، الذي لا يمثل المشكلة الحقيقية في الخلافات بين المذاهب الإسلامية ..وبين السنة والشيعة على وجه التحديد ــ فالفقه هو علم الفروع .. وكلما زاد الاجتهاد والتجديد في الفقه الإسلامي كلما تمايزت الاجتهادات في الأحكام الفقهية .. فتفتح الآفاق أمام تمايزات الاجتهادات هو الذي يحرك العقل الإسلامي المجتهد ،

وليس التقريب ــ فضلاً عن التوحيد لهذه الاجتهادات ــ فقط نريد احتضان الاجتهادات المذهبية والفقهية المتنوعة ، والاستفادة بالملائم من أحكامها للتيسير على الناس ، ولمواكبة المستجدات ..

وثانيا : إن الفقه هو علم الفروع .. وتمايز الاجتهاد فيه واختلاف المجتهدين فى أحكامه لم يكن فى يوم من الأيام يمثل مشكلة لوحدة الأمة ، بل كان مصدراً غنيا وثراء للعقل الفقهى والواقع الإسلامى على السواء .. وفى الفقه كان الأئمة والعلماء ، والمختلفون فى المذاهب ، يتتلمذ الواحد منهم على من يخالفه فى المذهب !.. بل ورأينا فى تراثنا من العلماء الأعلام من يجمع المذاهب المتعددة فى فقهه وعطائه ، فيفتى وفق مذهب ، ويقضى وفق مذهب ثان ، ويُدرِّس كل المذاهب لطلاب علمه ومريديه ! .

فاختلاف المذاهب الفقهية هو ظاهرة صحية فى الفكر الإسلامى ، وهو مصدر من مصادر الغنى والثراء لهذا الفقه ، ولا يمثل أية مشكلة لوحدة أمة الإسلام .. ومن ثم ، فليس هو الميدان الحقيقى والأولى للجهاد الفكرى فى التقريب بين مذاهب المسلمين ..

وثالثا : إن الميدان الذى كان ولا يزال يمثل مشكلة لوحدة الأمة ــ التى هى فريضة إلهية وتكليف قرآنى ــ هو ميدان بعض الاجتهادات المذهبية فى المذاهب الكلامية الإسلامية .. وعلى وجه التحديد أحكام " التكفير " و " التفسيق " التى نجدها فى تمرات هذه المذاهب والتى ارتبطت بقضية الإمامة على سبيل الحصر والتحديد ..

إن اختلاف مذاهب الفقه ــ السنية والشيعية ــ حول " نكاح المتعة " مثلا ، لا يمثل مشكلة تقصم وحدة الأمة الإسلامية .. لكن الاجتهادات التى تكفّر الصحابة الذين أخروا خلافة علي بن أبى طالب هى التى تهدد وحدة الأمة منذ عصر الخلافة وحتى هذه اللحظات ..

ومثلها الاجتهادات التى تكفّر الشيعة فى بعض كتب التراث السنى ، كما هو الحال عند شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ ــ ٧٢٨هـ / ١٢٦٣ ــ ١٣٢٨م) وبعض الأئمة " السلفيين " ويضاف إلى هذه المسائل بعض الآراء التى توهم التجسيد والتشبيه للذات الإلهية .. وبعض المواقف الحادة فى ميدان التصوف والصوفيين .

فالتقريب بين المذاهب ، والذى يمثل الميدان الحقيقى للجهاد الفكرى المطلوب ، هو الذى يوحد الأمة فى الأصول والثوابت ، وفى أمهات العقائد والمسائل الفكرية .. وهذا هو ميدان علم الكلام .. والجهد التقريبى ــ الغائب والمطلوب ــ هو نزع " **الألغام الفكرية ــ التكفيرية** " التى تقصم وحدة الأمة بالتكفير لفريق من الفرقاء أو مذهب من المذاهب ، لأن التكفير هو نفى للآخر ، يقصم وحدة الأمة .. وهو خطر لا علاقة له بالفقه ، الذى هو علم الفروع ، ولا بالاجتهادات والاختلافات الفقهية ، التى هى ظاهرة صحية ، تثمر الغنى والثراء فى الأحكام ، والتيسير والسعة للأمة كلها فى تطبيق هذه الأحكام ..

* وإذا كانت هذه " **الألغام الفكرية ــ التكفيرية** " ، التى تتغذى بها وعليها عقول قطاعات من العلماء فى بعض الحوزات العلمية ، وفى بعض

الدوائر الفكرية السنية .. كما تتغذى عليها نزعات التعصب عند العامة .. إذا كانت هذه " الألغام " قد غدت راسخة ، بل و " متكلسة " .. فإن الموقف الممكن والعملي إزاءها يمكن تصوره فيما يلي :

١ـ تحديد نطاق هذه " الألغام الفكرية التكفيرية " وأغلبها ـ لحسن الحظ ـ تابع من نقل القضايا الخلافية من نطاق " الفروع " إلى نطاق " أصول الاعتقاد " ،وتحويلها ـ من ثم ـ إلى عوامل " نفي .. وتكفير " للمخالفين ..

٢ـ اعتماد منهاج وسنة التدرج في تطبيق خطة إزالة هذه " الألغام الفكرية ـ التكفيرية " من الكتب التراثية ، وخاصة الذي يدرس منها في الحوزات العلمية والجامعات الإسلامية ، وذلك بحذفها من الطبعات الجديدة لكتب التراث هذه .. وفق المنهاج المتعارف عليه في " تهذيب " كتب التراث ..

٣ـ الاتفاق : في إطار حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية على منع تدريس هذه " الاجتهادات التكفيرية " في الحوزات والجامعات الإسلامية التي تكون عقول العلماء في مختلف بلاد الإسلام وفقا في منهاج الأزهر الشريف النموذج والقدوة في هذا الميدان ، فهو يحتضن كل مذاهب الأمة ـ الفقهية والكلامية ـ سلفها وخلفها على حد سواء ، مع استبعاد التكفير والتفسيق لأي مذهب من المذاهب أو فرقة من الفرق الإسلامية ، حفاظا على وحدة الأمة ، التي هي فريضة إلهية ، تعلو فوق اجتهادات المجتهدين ومذاهب المتمذهبين ..

وصدق الله العظيم فى قوله : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ [1] .

ذلك هو الميدان الحقيقي للجهاد الفكرى في التقريب بين المذاهب الإسلامية .. إنه علم الكلام .. علم الأصول فى الاعتقاد .. وليس علم الفقه والمذاهب الفقهية ، التي تتخصص في الفروع ، واختلافاتها رحمة واسعة ولا تفسد الود بين المسلمين ..

---

(1) الأنبياء : ٩٢ .

- ٣ -

مقال فى التحذير من التكفير

لأهل السنة والجماعة ــ الذين يمثلون ٩٠% من المسلمين ــ موقف واضح وحاسم وثابت فى رفض التكفير لمن يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ما دام قائما بحقوق هذه الشهادة ،التى هى شعار الإسلام ، العاصمة للدماء والأموال والحقوق .

وعن هذا الموقف الواضح والحاسم والثابت يعبر حجة الإسلام أبو حامد الغزالى ، فيقول : " واعلم أن حقيقة الكفر والإيمان وحدهما ، والحق والضلال وسرهما ، لا ينجلى للقلوب المدنسة بطلب المال والجاه وحبهما . بل إنما ينكشف ذلك لقلوب طهرت عن وسخ أو ضار الدنيا أولا ، ثم صقلت بالرياضة الكاملة ثانيا ، ثم نورت بالذكر الصافى ثالثا ، ثم غذيت بالفكر الصائب رابعا ، ثم زينت بملازمة حدود الشرع خامسا ، حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة ، وصارت كأنها مرآة مجلوة ، وصار مصباح الإيمان فى زجاجة قلبه مشرق الأنوار ، يكاد زيته يضىء ولو لم تمسسه نار .

وأنى تتجلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم ، ومعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم ، وشريعتهم رعونتهم ، وإرادتهم جاههم وشهواتهم ، وعبادتهم خدمتهم أغنياءهم ، وذكرهم

وساوسهم ، وكنزهم سواسهم ، وفكرهم استنباط الحيل لما تقتضيه حشمتهم ؟ .

فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الإيمان ؟ أبالهام إلهي ولم يفرغوا القلوب من كدورات الدنيا لقبولها ؟ أم بكمال علمي ، وإنما بضاعتهم في العلم مسألة النجاسة وماء الزعفران وأمثالهما ؟

هيهات هيهات : هذا المطلب أنفس وأعز من أن يدرك بالمنى ، أو ينال بالهوينا ، فاشتغل أنت بشأنك ، ولا تضيع فيهم بقية زمانك ﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ [1] .

.. ولعلك إن أنصفت علمت أن من جعل الحق وقفًا على واحد من النظار بعينه فهو إلى الكفر والتناقض أقرب .

أما الكفر ، فلأنه نزله منزلة النبي المعصوم من الزلل ، الذي لا يثبت الإيمان إلا بموافقته ، ولا يلزم الكفر إلا بمخالفته .

وأما التناقض ، فهو أن كل واحد من النظار يوجب النظر ، وأن لا ترى في نظرك إلا ما رأيت ، وكل ما رأيته حجة . وأي فرق بين من

---

(1) حجة الإسلام ، أبو حامد الغزالي ، (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ، ص ٢ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٥هـ ، سنة ١٩٠٧م ، والآيتان من سورة النجم : ٢٩ ، ٣٠ .

يقول : قلدني في مجرد مذهبي ، وبين من يقول : قلدني في مذهبي ودليلي جميعاً ؟ وهل هذا إلا التناقض ؟

* * *

(و) لعلك تشتهي أن تعرف حد الكفر بعد أن تتناقض عليك حدود أصناف المقلدين ، فاعلم أن شرح ذلك طويل ، ومدركه غامض ، ولكني أعطيك علامة صحيحة فتطردها وتعكسها لتتخذها مطمح نظرك وترعوي بسببها عن تكفير الفرق وتطويل اللسان في أهل الإسلام وإن اختلفت طرقهم ، ما داموا متمسكين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، صادقين بها ، غير مناقضين لها ، فأقول :

الكفر : هو تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام في شيء مما جاء به .

والإيمان : تصديقه في جميع ما جاء به .

[illegible]

[illegible]

وهذا لأن الكفر حكم شرعي ، كالرق والحرية مثلاً ، إذ معناه الحكم بالخلود في النار ، ومدركه شرعي ، فيدرك إما بنص أو بقياس على منصوص (1) .

* * *

" .. ولا ينجيك .. إلا أن تعرف حد التكذيب والتصديق وحقيقتهما فيه ، فينكشف لك غلوّ هذه الفرق وإسرافها في تكفير بعضها بعضاً .

فأقول : التصديق إنما يتطرق إلى الخبر ، بل إلى المخبر ، وحقيقته : الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول ﷺ عن وجوده . إلا أن للوجود خمس مراتب ، ولأجل الغفلة عنها نسبت كل فرقة مخالفها إلى التكذيب ، فإن الوجود ذاتي ، وحسي ، وخيالي ، وعقلي ، وشبهي ، فمن اعترف بوجود ما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام ، عن وجوده بوجه من هذه الوجوه الخمسة فليس بمكذّب على الإطلاق ..

واعلم أن كل من نزّل قولاً من أقوال صاحب الشرع على درجة من هذه الدرجات فهو من المصدقين ، وإنما التكذيب : أن ينفي جميع

---

(1) (فيصل التفرقة) ، صـ ٥٠٤ .

هذه المعانى ، ويزعم أن ما قاله الرسول ﷺ لا معنى له ، وإنما هو كذب محض ، وغرضه مما قاله التلبيس أو مصلحة الدنيا ، وذلك هـو الكفـر المحض والزندقة .

ولا يلزم كفر المتأولين ، وما من فرقة من أهل الإسـلام إلا وهـو مضطر إليه . فأبعد الناس عن التأويل أحمد بن حنبل رحمـة الله عليـه ، وأبعد التأويلات عن الحقيقة وأغربها أن تجعل الكلام مجازاً أو اسـتعارة ، وهو الوجود العقلى والوجود الشبيهى ، والحنبلى مضطر إليه ، وقائل بـه . فقد سمعت الثقات من أئمة الحنابلة ببغداد يقولون إن أحمد بن حنبل رحمـه الله صرح بتأويل ثلاثة أحاديث فقط .. لأنه لم يكـن ممعنـا فـى النظـر العقلى .

والأشعرى والمعتزلى لزيادة بحثهما ، تجاوزاً إلى تـأويل ظواهـر كثيرة ، وأقرب الناس إلى الحنابلة فى أمور الآخرة الأشعرية ــ وفقهم الله ــ فإنهم قرروا فيها أكثر الظواهر إلا يسيراً والمعتزلة أشد منهم توغلاً فى التأويلات ..[1] .

ومن الناس من يبادر إلى التأويل بغلبات الظنون من غـير برهـان قاطع ، ولا ينبغى أن يبادر أيضا إلى كفره فى كل مقام ، بل ينظر فيـه ، فإن كان تأويله فى أمر لا يتعلق بأصول العقائد ومهماتها فـلا نكفـره .. ولعل الظن فى مثل هذه الأمور التى لا تتعلق بـأصول الاعتقـاد يجـرى مجرى البرهان فى أصول الاعتقاد فلا يكفر فيه ولا يبدع .

---

(١) المصدر السابق ، صـ ٩ ، ١٠ .

نعم ، إن كان فتح هذا الباب يؤدى إلى تشويش قلوب العوام فيبدع به . . وأما ما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع ، كالذى ينكر حشر الأجساد ، وينكر العقوبات الحسية فى الآخرة بظنون وأوهام واستبعادات من غير برهان قاطع ، فيجب تكفيره قطعا ، إذا لا برهان على استحالة رد الأرواح إلى الأجساد ،وذكر ذلك عظيم الضرر فى الدين ، فيجب تكفير كل من تعلق به ، وهو مذهب أكثر الفلاسفة .

وكذلك يجب تكفير من قال منهم إن الله تعالى لا يعلم إلا نفسه ، أو لا يعلم إلا الكليات ، فأما الأمور الجزئية المتعلقة بالأشخاص فلا يعلمها ، لأن ذلك تكذيب للرسول ﷺ قطعا ، وليس من قبيل الدرجات التى ذكرناها فى التأويل ..

والزندقة المطلقة : أن تنكر أصل المعاد عقليا وحسيا ، وتنكر الصانع للعالم أصلا ورأسا .

وأما إثبات المعاد بنوع عقلى مع نفى الآلام واللذات الحسية ، وإثبات الصانع مع نفى علمه بتفاصيل العلوم فهى زندقة مقيدة بنوع اعتراف بصدق الأنبياء [1] .

" .. وأعلم أن شرح ما يكفر به وما لا يكفر به يستدعى تفصيلا طويلاً .. فاقنع الآن بوصية وقانون :

---

(١) المصدر السابق : صـ١٣ ــ ١٥ .

أما الوصية فأن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك ما داموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله ، غير مناقضين لها ، والمناقضة : تجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ بعذر أو غير عذر ، فإن التكفير فيه خطر ، والسكوت لا خطر فيه .

وأما القانون : فهو أن تعلم أن النظريات قسمان : قسم يتعلق بأصول القواعد ، وقسم يتعلق بالفروع ، وأصول الإيمان ثلاثة : الإيمان بالله ، وبرسوله ، وباليوم الآخر ، وما عداه فروع .

واعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلاً إلا في مسألة واحدة وهي أن ينكر أصلاً دينيا علم من الرسول ﷺ بالتواتر ، ولكن في بعضها تخطئة ، كما في الفقهيات ، وفي بعضها تبديع ، كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة .

واعلم أن الخطأ في أصل الإمامة وتعينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شيء منه التكفير .. ولا يلتفت إلى قوم يعظمون أمر الإمامة ويجعلون الإيمان بالإمام مقرونا بالإيمان بالله وبرسوله ولا إلى خصومهم المكفرين لهم بمجرد مذهبهم في الإمامة ، فكل ذلك إسراف ، إذ ليس في واحد من القولين تكذيب للرسول ﷺ أصلا ، ومتى وجد التكذيب وجب التكفير وإن كان في الفروع .

نعم ، لو أنكر ما ثبت بأخبار الآحاد فلا يلزمه به الكفر ، ولو أنكر ما ثبت بالإجماع فهذا فيه نظر ، لأن معرفة كون الإجماع حجة قاطعة فيه غموض يعرفه المحصلون لعلم أصول الفقه .. فهذا حكم الفروع .

وأما الأصول الثلاثة ، وكل ما لا يحتمل التأويل في نفسه ، وتواتر نقله ، ولم يتصور أن يقوم برهان على خلافه فمخالفته تكذيب محض [1].

* * *

ولا ينبغي أن يظن أن التكفير ونفيه ينبغي أن يدرك قطعا في كل مقام ، بل التكفير حكم شرعي يرجع إلى إباحة المال وسفك الدم والحكم بالخلود في النار ، فمأخذه كمأخذ سائر الأحكام الشرعية فتارة يدرك بيقين وتارة بظن وتارة يتردد فيه ومتى حصل تردد فالوقف فيه عن التكفير أولى ، والمبادرة إلى التكفير إنما يغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل .

ولابد من التنبيه على قاعدة أخرى ؛ وهو أن المخالف قد يخالف نصا متواترا ويزعم أنه مؤول ، ولكن ذكر تأويله لا انقداح له أصلاً في اللسان ، لا على بعد ولا على قرب ، فذلك كفر ،وصاحبه مكذب وإن كان يزعم أنه مؤول . مثاله : ما رأيته في كلام بعض الباطنية أن الله تعالى واحد بمعنى أنه يعطي الوحدة ويخلقها ، وعالم بمعنى أنه يعطي العلم لغيره ويخلقه ، وموجود بمعنى أنه يوجد غيره ، وأما أن يكون واحداً في نفسه وموجوداً وعالماً على معنى اتصافه فلا ، وهذا كفر صراح ، لأن حمل الوحدة على إيجاد الوحدة ليس من التأويل في شئ ، ولا تحتمله لغة العرب أصلاً ، ولو كان خالق الوحدة يسمى واحداً لخلقه الوحدة تسمى ثا وأربعا لأنه خلق الأعداد أيضا . فأمثلة هذه المقالات تكذيبات عبّر عنها بالتأويلات ..

---

(1) المصدر السابق ، صـ١٥ ، ١٦ .

ومعرفة ما يقبل التأويل وما لا يقبل التأويل ليس بالهين ، بل لا يستقل به إلا الماهر الحاذق فى علم اللغة ، العارف بأصول اللغة ، ثم بعادة العرب فى الاستعمال فى استعاراتها وتجوزاتها ومنهاجها فى ضروب الأمثال[1] .

* * *

وإن ما لا يعظم ضرره فى الدين فالأمر فيه سهل وإن كان القول شنيعا وظاهر البطلان ، كقول الإمامية المنتظرة إن الإمام مختف فى سرداب فإنه ينتظر خروجه ، فإنه قول كاذب ظاهر البطلان ، شنيع جدا ، ولكن لا ضرر فيه على الدين ، إنما الضرر على الأحمق المعتقد لذلك ، إذ يخرج كل يوم من بلده لاستقبال الإمام حتى يدخل فيرجع إلى بيته خاسئا — وهذا مثال — والمقصود : أنه لا ينبغى أن يُكفَّر بكل هذيان وإن كان ظاهر البطلان .

فإذا فهمت أن النظر فى التكفير موقوف على جميع هذه المقامات التى لا يستقل بآحادها المبرزون ، علمت أن المبادر إلى تكفير من يخالف الأشعرى [2] أو غيره ، جاهل مجازف . وكيف يستقل الفقيه بمجرد الفقه بهذا الخطب العظيم ؟! وفى أى ربع من أرباع الفقه يصادف هذه العلوم ؟! فإذا رأيت الفقيه الذى بضاعته مجرد الفقه يخوض فى التكفير والتضليل فأعرض عنه ولا تشغل به قلبك ولسانك ، فإن التحدى بالعلوم

---

(١) المصدر السابق ، صـ ١٧ ، ١٨ .

(٢) هو أبو الحسن الأشعرى (٢٦٠ — ٣٢٤هـ / ٨٧٤ — ٩٣٦م) إمام أهل السنة والجماعة — والأشعرية مع الماتريدية — نسبة إلى الماتريدى (٣٣٣هـ / ٩٤٤م) يمثلون الجمهور الغالب من أهل السنة والجماعة .

غريزة في الطبع لا يصبر عنه الجهال ، ولأجله كثر الخلاف بين الناس ، ولو سكت من لا يدرى لقل الخلاف بين الخلق [1] .

* * *

والحق الصريح أن كل من اعتقد ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام واشتمل عليه القرآن اعتقادا جزما فهو مؤمن وإن لم يعرف أدلته ، بل الإيمان المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جدا ، مشرف على الزوال بكل شبهة [2] .

* * *

وأنا أقول :

إن الرحمة تشمل كثيرا من الأمم السالفة ، وإن كان أكثرهم يعرضون على النار إما عرضة خفيفة حتى في لحظة أو ساعة وإما في مدة حتى يطلق عليهم اسم بعث النار .

بل أقول : إن أكثر نصارى الروم والترك في هذا الزمان تشملهم الرحمة إن شاء الله تعالى ، أعني الذين هم في أقاصي الروم والترك ولم تبلغهم الدعوة ، فإنهم ثلاثة أصناف :

صنف لم يبلغهم اسم محمد ﷺ أصلاً ، فهم معذورون .

وصنف بلغهم اسمه ونعته وما ظهر عليه من المعجزات ، وهم المجاورون لبلاد الإسلام والمخالطون لهم ، وهم الكفار الملحدون .

---

(١) (فيصل التفرقة) : صـ١٩ .

(٢) المصدر السابق : صـ٢١ ـ ٢٢ .

وصنف ثالث بين الدرجتين ، بلغهم اسم محمد ﷺ ولم يبلغهم نعتـــه وصفته بل سمعوا أيضا ــ منذ الصبا ــ أن كذابا ملبسا اسمه محمد ادعـــى النبوة ، كما سمع صبياننا أن كذابا يقال له المقفع[1] بعثه الله تحدى بـــالنبوة كاذبا . فهؤلاء عندى فى معنى الصنف الأول ، فإنهم مع أنهم سمعوا اسمه سمعوا ضد أوصافه ، وهذا لا يحرك داعية النظر فى الطلب ..

وأما سائر الأمم ، فمن كذّبه بعد ما قرع سمعه التواتر عن خروجـــه وصفته ومعجزته الخارقة للعادة ، كشق القمر ، وتسبيح الحصى ، ونبـــع الماء من بين أصابعه ، والقرآن المعجز الذى تحدى به أهـــل الفصاحـــة وعجزوا عنه ، فإذا قرع ذلك سمعه فأعرض عنه وتولى ولم ينظر فيه ولم يتأمل ولم يبادر إلى التصديق ، فهذا هو الجاحد الكاذب ، وهـــو الكـافر ، ولا يدخل فى هذا أكثر الروم والترك الذين بعــدت بلادهـــم عـــن بـــلاد المسلمين .

بل أقول : من قرع سمعه هذا فلابد أن تنبعث بــــه داعيـــة الطلـــب ليستبين حقيقة الأمر إن كان من أهل الدين ، ولم يكن من الذين اســـتحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، فإن لم تنبعث هذه الداعية فذلك لركونــــه إلـــى الدنيا ، وخلوه عن الخوف ، وخطر أمر الدين ، وذلك كفر .

---

(١) أى عبد الله بن المقفع (١٠٦ ــ ١٤٢هـ / ٧٢٤ ــ ٧٥٩م) اتهم بالزندقة ، وقتلـــه المهدى العباسى ــ فى البصرة ــ فى ولاية أميرها سفيان بن معاوية المهلبى .

وإن انبعث الداعية فقصّر فى الطلب ، فهو أيضًا كفر ، بل ذو الإيمان بالله واليوم الآخر من أهل كل ملة لا يمكنه أن يفتر عن الطلب بعد ظهور المخايل بالأسباب الخارقة للعادة .

فإن اشتغل بالنظر والطلب ولم يقصّر فأدركه الموت قبل تمام التحقيق فهو أيضًا مغفور له ، ثم له الرحمة الواسعة ، فاستوسع رحمة الله تعالى ولا تزن الأمور الإلهية بالموازين المختصرة الرسمية ..

والمخلدون في النار بالإضافة إلى الناجين والمخرجين منها فى الآخرة نادر ، فإن صفة الرحمة لا تتغير باختلاف أحوالنا ، وإنما الدنيا والآخرة عبارتان عن اختلاف أحوالك ، ولولا هذا لما كان لقوله عليه الصلاة والسلام معنى حيث قال : " أول ما خط الله فى الكتاب الأول : أنا الله لا إله إلا أنا ، سبقت رحمتى غضبى " فمن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله فله الجنة ..

فأبشر برحمة الله وبالنجاة المطلقة إن جمعت بين الإيمان والعمل الصالح ، وبالهلاك المطلق إن خلوت عنهما جميعًا ، وإن كنت صاحب يقين فى أصل التصديق وصاحب خطأ فى بعض التأويل أو صاحب شك فيهما أو صاحب خلط فى الأعمال فلا تطمع فى النجاة المطلقة "[1] .

* * *

" .. واعلم أن للفرق فى (التكفير) مبالغات وتعصبات ، فربما انتهى بعض الطوائف إلى تكفير كل فرقة سوى الفرقة التى يعتزى إليها .

---

(١) (فيصل التفرقة) ، صـ ٢٣ ــ ٢٥ .

فإذا أردت أن تعرف سبيل الحق فيه فاعلم قبل كل شيء أن هذه مسألة فقهية ، أعني الحكم بتكفير من قال قولا وتعاطى فعلا ، فإنها تارة تكون معلومة بأدلة سمعية ، وتارة تكون مظنونة بالاجتهاد ، ولا مجال لدليل العقل فيها البتة [1] .

فإذا تقرر هذا الأصل ، فقد قررنا في أصول الفقه وفروعه أن كل حكم شرعي يدعيه مدع فإما أن يعرفه بأصل من أصول الشرع من إجماع أو نقل أو بقياس على أصل . وكذلك كون الشخص كافراً ، إما أن يدرك بأصل أو بقياس على ذلك الأصل .

والأصل المقطوع به أن كل من كذّب محمداً ﷺ فهو كافر ، أي مخلد في النار بعد الموت [illegible] – إلى جملة الأحكام – إلا أن التكذيب على مراتب :

الرتبة الأولى : تكذيب اليهود والنصارى وأهل الملل كلهم من المجوس وعبدة الأوثان وغيرهم ، فتكفيرهم منصوص عليه في الكتاب ، ومجمع عليه بين الأمة ، وهو الأصل ، وما عداه كالملحق به .

الرتبة الثانية : تكذيب البراهمة المنكرين لأصل النبوات ، والدهرية المنكرين لصانع العالم ، وهذا ملحق بالنصوص بطريق الأولى ، لأن هؤلاء كذّبوه وكذبوا غيره من الأنبياء – أعني البراهمة – فكانوا بالتكفير أولى من النصارى واليهود ، والدهرية أولى بالتكفير من البراهمة ، لأنهم

---

(١) أبو حامد الغزالي (الاقتصاد في الاعتقاد) ، صـ ١٤١ ، طبعة مكتبة صبيح – ضمن مجموعة – القاهرة ، بدون تاريخ .

أضافوا إلى تكذيب الأنبياء إنكار المرسل ، ومن ضرورية إنكار النبوة . ويلتحق بهذه الرتبة كل من قال قولاً لا يثبت النبوة في أصلها ، أو نبوة نبينا محمد على الخصوص إلا بعد بطلان قوله .

الرتبة الثالثة : الذين يصدقون بالصانع والنبوة ، ويصدقون النبي ولكن يعتقدون أموراً تخالف نصوص الشرع ، ولكن يقولون إن النبي محق ، وما قصد بما ذكره إلا اصلاح الخلق ، ولكن لم يقدر على التصريح بالحق لكلال أفهام الخلق عن دركه . وهؤلاء هم الفلاسفة ، وهؤلاء يجب تكفيرهم في ثلاثة مسائل ، وهي :

إنكارهم لحشر الأجساد والتعذيب بالنار والتنعيم في الجنة بالحور العين والمأكول والمشروب والملبوس ، والأخرى قولهم إن الله لا يعلم الجزئيات وتفصيل الحوادث وإنما يعلم الكليات ، وإنما الجزئيات تعلمها الملائكة السماوية .

والثالثة قولهم إن العالم قديم ، وأن الله تعالى متقدم على العالم بالرتبة مثل تقدم العلة على المعلول ، وإلا فلم تر في الوجود إلا متساويين .

وهؤلاء إذا أوردوا عليهم آيات القرآن زعموا أن اللذات العقلية تقصر الأفهام عن دركها ، فمثل لهم ذلك باللذات الحسية . وهذا كفر صريح ، والقول به إبطال لفائدة الشرائع وسد لباب الاهتداء بنور القرآن واستبعاد الرشد من قول الرسل ، فإنه إذا جاز عليهم الكذب لأجل المصالح بطلت الثقة بأقوالهم ، فما من قول يصدر عنهم إلا ويتصور أن يكون كذبا ، وإنما قالوا ذلك لمصلحة .

(فإن قيل) : فلم قلتم ، مع ذلك ، بأنهم كفرة ؟

قلنا : لأنه عرف قطعًا من الشرع أن من كذّب رسول الله فهو كافر ، وهؤلاء مكذبون ، ثم معللون للكذب بمعاذير فاسدة ، وذلك لا يخرج الكلام عن كونه كذبا .

الرتبة الرابعة : المعتزلة والمشبهة والفرق كلها ـ سوى الفلاسفة ـ وهم الذين يصدقون ، ولا يجوزون الكذب لمصلحة وغير مصلحة ، ولا يشتغلون بالتعليل لمصلحة الكذب ، بل بالتأويل ، ولكنهم مخطئون في التأويل ، فهؤلاء أمرهم في محل الاجتهاد ، والذي ينبغي أن يميل المحصل إليه ، الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلا ، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم ..

وهذه الفرق منقسمون إلى مسرفين وغلاة وإلى مقتصدين بالإضافة إليهم ، ثم المجتهد الذي يرى تكفيرهم قد يكون ظنه في بعض المسائل وعلى بعض الفرق أظهر ، وتفصيل آحاد تلك المسائل يطول ، ثم يثير الفتن والأحقاد ، فإن أكثر الخائضين في هذا إنما يحركهم التعصب واتباع الهوى دون النظر للدين .

ودليل المنع من تكفيرهم أن الثابت عندنا بالنص تكفير المكذب للرسول ، وهؤلاء ليسوا مكذبين أصلا ، ولم يثبت لنا أن الخطأ في التأويل موجب للتكفير ، فلابد من دليل عليه ، وثبت أن العصمة مستفادة من قول لا إله إلا الله قطعا ، فلا يدفع ذلك إلا بقاطع ، وهذا القدر كاف

فى التنبيه على أن إسراف من بالغ فى التكفير ليس عن برهـــان ، فــإن البرهان إما أصل أو قياس على أصل ، والأصل هو التكذيب الصريـــح ، ومن ليس بمكذب فليس فى معنى المكذب أصلاً ، فيبقـــى تحـــت عمــوم العصمة بكلمة الشهادة .

الرتبة الخامسة : من ترك التكذيب الصريح ولكن ينكر أصلاً عـــن أصول الشرعيات المعلومة بالتواتر من رســـول الله ﷺ كقول القــائل : الصلوات الخمس غير واجبة ، فإذا قرئ عليه القرآن والأخبار قال لســت أعلم صدور هذا من رسول الله ، فلعله غلطٌ وتحريف . وكمن يقـــول أنــا معترف بوجوب الحج ولكن لا أدرى أين مكة وأين الكعبــة ولا أدرى أن البلد الذى تستقبله الناس ويحجونه هلى هى البلد التى حجها النبـــى عليــه الصلاة والسلام ووصفها القرآن . فهذا أيضا ينبغى أن يحكم بكفره لأنـــه مكذب ولكنه محترز عن التصريح ، وإلا فالمتواترات تشترك فى دركـــها العوام والخواص .. إلا أن يكون هذا الشخص قريب عهد بالإسلام ، ولــم يتواتر عنده بعد هذه الأمور فيمهله إلى أن يتواتر عنده ، ولسنا نكفـــره لأنه أنكر معلوما بالتواتر ، وأنه لو أنكر غزوة من غـــزوات النبـى ﷺ المتواترة ، أو أنكر وجود أبى بكر وخلافته لم يلزم تكفيره ، لأنه ليـــس تكذيبا فى أصل من أصول الدين مما يجب التصديق به ، بخـــلاف الحـج والصلاة وأركان الإسلام ولسنا نكفره بمخالفـــة الإجمـــاع .. لأن الشُّـبه

كثيرة في كون الإجماع حجة قاطعة ، وإنما الإجماع عبارة عن التطابق على رأى نظرى [1] .

* * *

هكذا رأينا جمهور أهل السنة والجماعة ــ بلسان حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ــ لا يكفرون أحدا من أهل القبلة يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ..

* لا يكفرون الشيعة الإمامية بقولهم في الإمامة .. رغم ما في عقيدتهم هذه من حماقة وشذوذ .. ورغم تكفير جمهور الشيعة لمن لا يتفق معهم في عقيدتهم في الإمامة .

ولا يكفرون أحدا من المتأولين الذين ، يلتزمون قوانين التأويل ..

* ولا يكفرون أحدا من الفرق المخالفة ــ مثل المعتزلة أو المشبهة أو غيرها ــ لأن معيار الإيمان هو التصديق بما جاء به رسول الله ﷺ .. ومعيار الكفر هو التكذيب لما جاء به الرسول ــ وخاصة في الأصول ..

ومن هنا كان زجرهم عن المسارعة إلى التكفير .. وتأكيدهم على أن هذه القضية فقهية شرعية لا تثبت إلا بأصل أو قياس على هذا الأصل .. ولا تثبت بالرأى والعقل .. ومن ثم " فإن الاحتراز من التكفير واجب ما وجد المرء إليه سبيلا ، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة ، المصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ ، والخطأ في

---

(1) المصدر السابق ، ص ١٤٢ ــ ١٤٥ .

تركُ ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم" !

ــ كما يقول الغزالي ــ :

وبعبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

" أصل من أصول الأحكام في الإسلام : البعد عن التكفير .. ولقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر .. فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفلاسفة الحكماء أوسع من هذا !؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولاً لا يحتمل الإيمان من وجه واحد من مائة وجه !؟ "[1].

---

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج٣ ، ص٣٠٢ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م .

— ٤ —

مستويات الخطاب .. ومستويات المخاطبين

يؤمن المنهج الإسلامي بوحدة الحقيقة .. وليس بتعددها ـــ كما هـــو الحال في المناهج الوضعية الغربية ، التي تقسم الحقيقـــة إلـــى : عقلية علمية لا دينية " ودينية لا عقلانية " .

ويؤمن المنهج الإسلامي بحق كل إنسان مكلف في السعي إلى طلـــب الحقيقة وتحصيلها .. " فالحكمة ضالة المؤمن أنىّ وجدها فهو أحق النـــاس بها " .. وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومســـلمة .. أي أن الإســـلام يتجاوز جعل العلم والحكمة والحقيقة مجرد " حق " من حقوق الإنســـان ، إلى حيث يجعل ذلك " **فريضة إلهية وتكليفاً شرعيا وواجبا ربانيا** " لأنـــه لا يسوي بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، ولأن خطاب الإسلام موجه ـــ بالأساس ـــ إلى الذين يتفكرون ويتدبرون ويعقلون .. ولأن الدين علم ، وبدون العلم والمعرفة يستحيل على الإنسان أن ينـــهض بالأمانـــة التـــي حملها ، أمانة العمران لهذا الكوكب الذي يعيش فيه .. والشكر لواهب النعم في هذا الوجود ..

لكن .. لما كانت مستويات الناس ـــ الفطرية " والكسبية ، متفاوتـــة ، تفاوتت ـــ لذلك ـــ إمكاناتهم وطاقتهم وحظوظهم في تحصيل ما يحصلـــون

من الحقائق والمعارف والعلوم .. وليس فى ذلك شبهة طبقية ولا كهانة ، كتلك التى عرفتها حضارات قديمة وديانات أخرى ، حجرت على عامة الناس ميادين كثيرة من العلم الدينى والمعارف الدنيوية .. وإنما هو المنهج الإسلامى الذى يفتح أبواب ميادين المعارف والعلوم على مصاريعها أمام الكافة ، ثم يطلب من كل إنسان أن يحمل من العلم قدر الطاقة والاستعداد والجهد الذى يبذله فى الطلب والتحصيل .

ولهذه الحقيقة من حقائق المنهج الإسلامى تمايزت مستويات " الخطاب الإسلامى " وفق تمايز المستويات العقلية للمخاطبين .. فمع وجود المقادير الضرورية التى لا يستغنى عنها المكلف من المعارف والعلوم .. الدينية والدنيوية ـ هناك مستويات وألوان من الحقائق والمعارف والعلوم لا يذكيها إلا العلماء .. وهناك مستويات أخرى لا يدركها إلا الراسخون فى العلم .. ووراء جميع ذلك هناك مستويات من العلم لا يدرك العقل الإنسانى كنه حقائقها وجوهر مكنوناتها .. بل لا تستطيع اللغة أن تعبر عن هذا الجوهر والكنه والمكنون ، لأنها من علم الله الكلى والمطلق والمحيط ، وليست من العلم النسبى والمعارف النسبية المقدورة للإنسان .. ولهذا القسم من العلم الإلهى يضرب الله الأمثال التى تقرب صورته إلى الإنسان .

ولهذا الحقيقة من حقائق هذا المنهج الإسلامى ، فى تعدد مستويات الخطاب الإسلامى ، وفق تعدد مستويات الإدراك والتعقل لدى المخاطبين ،

ميز القرآن الكريم بين " المحكم " الذى يدركه جمهور المخاطبين .. وبين " المتشابه " ، الذى يعرف تأويل بعضه الراسخون فى العلم .. ولا يدرك مآلات بعضه الآخر إلا الله ــ سبحانه وتعالى ــ .. ودعا الإسلام الكافة إلى تجنب تأويل هذا القسم ، الذى تعلو حقائقه الكلية عن مدارك العقل النسبية ، كى لا تكون فتنة بين الناس .

ولقد جاء فى الحديث النبوى الشريف : " أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم ــ رواه الديلمى عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ وأورده السيوطى فى [جامع الأحاديث] .

ولقد عقد الإمام البخارى ــ فى كتاب العلم ــ بابًا " لمن خص بالعلم قوما دون قوم كراهة أن لا يفهموا " ..وأورد فيه عن على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ قوله : " حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله ؟! " .

وفى مقالات الإسلاميين لإمام أهل السنة والجماعة أبو الحسن الأشعرى [٢٦٠ــ٣٢٤هــ٨٧٤ــ ٩٣٦م] ــ تجد أن " المباحث العالية فى دقيق الكلام " لا يدركها إلا الراسخون فى العلم من أصحاب المقالات ..

وانطلاقا من هذه الرؤية ، كان اجتماع علماء الإسلام على ضرورة حجب مستويات من العلم عن الذين لم يحصلوا من الأدوات ما يجعلهم يطيقون فقه هذه المستويات ، وذلك حتى لا تتحول الحقائق ــ عند من لا طاقة لهم بفقهها ــ إلى سبيل من سبل البلبلة أو الضلال ، أو الشكوك التى لا يستطيعون الخلاص من دواماتها إلى شاطئ اليقين والاطمئنان .

* ولقد كان حجة الإسلام أبو حـامد الغزالـى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م] من أكثر العلماء الذين وضعوا الكتب والرسـائل فـى تقعيد قواعد هذا المنهاج ـ منهاج التمييز والتحديد لمستويات الخطـاب ، وفق تمايز مستويات المخاطبين ..

ومن الكتب النفيسة التى خصصها الغزالى لهذا المنهج كتابه :[إلجام العوام عن علم الكلام] .. ذلك أن علم الكلام إنما نشأ ـ فـى الحضـارة الإسلامية ـ على يد المعتزلة ـ للرد على خصوم الإسلام ، وللجدل مـع المعاندين من أصحاب الفلسفات والديانات غير الإسلامية .. فـهو بمثابـة " ترسانة الحرب الخارجية " القائمة على الثغور .. فإذا تحولت أسلحته إلى " الصراعات الداخلية " وإذ استخدم هذه الأسلحة غـير المدربيـن علـى استخدامها ، وغير القادرين على حملها ، كانت فتنة كبرى بين الجـمهور والعوام .

ولذلك ، قرر الغزالى ـ فى هذا الكتاب ـ أن من بحار علم الكـلام وميادينه ومصطلحاته ما لا تجوز السباحة فيه لغير القـادرين علـى فقـه " دقيق الكلام " .. وهو يرد على الذين ينكرون تمايز مستويات الخطـاب بتمايز مستويات المخاطبين ، بحجة عموم الخطاب ، وأن الله ـ سـبحانه وتعالى ـ لا يخاطب الخلق بما لا يفهمون .. يرد الغزالى على أصحـاب هذا القول .. ويحاورهم .. فيقول :

" .. وإن قلت " :

ـ فأى فائدة فى مخاطبة الخلق بما لا يفهمون ؟

وجوابك :

ـ إنه قصد بهذا الخطاب تفهيم من هـو أهلـه ، وهـم الأوليـاء والراسخون فى العلم ، وقد فهموا ، وليس من شرط من خاطب العقـلاء بكلام أن يخاطبهم بما يفهم الصبيان والعوام بالإضافـة إلـى العـارفين كالصبيان بالإضافة إلى البالغين ، ولكن على الصبيان أن يسألوا البـالغين عما يفهمونه ، وعلى البالغين أن يجيبوا الصبيان بأن هـذا ليـس مـن شأنكم ، ولستم من أهله ، فخوضوا فى حديث غيره .

ويجب على كل من لا يقف على كنه هذه المعانى وحقيقتها ، ولـم يعرف تأويلها والمعنى المراد به أن يقر بالعجز ، فإن التصديق واجـب ، وهو عن دركه عاجز ، فإن ادعى المعرفة فقد كذب . . .

بل إن الراسخين فى العلم والعارفين من الأولياء إن جـاوزوا فـى المعرفة حدود العوام ، وجالوا فى ميدان المعرفة ، وقطعوا من بواديـها أميالا كثيرة ، فما بقى لهم مما لم يبلغوه بين أيديهم أكثر ، بل لا نسـبة لما طوى عنهم إلى ما كشف لهم ، لكـثرة المطـوى وقلـة المكشـوف بالإضافة إليه ، والإضافة إلى المطوى المستور .

وإن مستند إيمان العوام فى هذه الأسباب وأعلى الدرجات فى حقه : أدلة القرآن وما يجرى مجراه مما يحرك القلب إلى التصديق ، ولا ينبغـى أن يجاوز بالعامى إلى ما وراء أدلة القرآن وما فى معناه ، بل لو اشـتغل العامى بالمعاصى البدنية ربما كان أسلم له من أن يخوض فى البحث عن

معرفة الله تعالى ، لأن ذلك غايته الفسق ، وهذا عاقبته الشرك ، وأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء "[1] .

كما كتب الغزالي ــ كذلك ــ في هذا الفن ــ كتابه : [المضنون به على غير أهله] .. وفيه يقرر أن من الحقائق ما لا يعلمها العقلاء ــ فضلا عن العوام ــ لأنها مما استأثر الله ــ سبحانه ــ بعلمه :

" ذلك أن وراء ما يتصوره العقلاء أمورا ورد الشرع بها ولا يعلم حقائقها إلا الله تعالى والأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده "[2] .

كما كتب الغزالي ــ أيضا في هذا الموضوع رسالته [الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية] أي [المضنون الصغير] .. وفيها تحدث عن مذهب السلف ، الذي هو : زجر العوام عن الخوض في علم الكلام .. وإباحته للراسخين في العلم ، مستخدما مثال السباحة في النهر للتمييز بين القادرين عليها وبين غير القادرين .. فقال :

" .. ولهذا زجر السلف عن البحث والتفتيش عن علم الكلام ، وإنما زجروا عنه لضعاف العوام . وأما المشتغلون بدرك الحقائق فلهم خوض غمرة الإشكال . ومنع الكلام للعوام يجري مجرى منع الصبيان من شاطئ

---

(١) الغزالي [إلجام العوام عن علم الكلام] ص٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٩٧، ٢٦٣. طبعة القاهرة ــ مكتبة الجندي ضمن مجموعة [القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي] بدون تاريخ.

(٢) الغزالي [المضنون به على غير أهله] ص ٣٤٥ ــ طبعة مكتبة الجندي ــ ضمن مجموعة [القصور العوالي] ..

نهر دجلة خوفًا من الغرق ، ورخصة الأقوياء فيه تضاهى رخصة الماهر فى صنعة السباحة "[1] .

هكذا أفاض حجة الإسلامى أبو حامد الغزالى فى تحديد مستويات الخطاب وفق تمايز مستويات المخاطبين .

* * *

* فلما جاء الفيلسوف الفقيه أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠ـ٥٩٥هـ ١١٢٦ـ١١٩٨م] سار على طريق الغزالى .. فتحدث عن وحدة الحقيقة ، وعن تعدد طرق التصديق بهذه الحقيقة الواحدة وذلك تبعًا لتعدد مستويات المخاطبين المكلفين بهذا التصديق .

فهو يؤكد على وحدة الحقيقة فى الذات الإلهية .. وفى الشريعة الإلهية .. وفى المخلوقات مع تعدد طرق التصديق بهذه الحقيقة الواحدة ، تبعًا لتعدد جبلات الناس وطبائع الجمهور : عامة وحكماء .. ومتوسطين بينهما .. فيقول :

" إنا نعتقد ، معشر المسلمين ، أن شريعتنا هذه الإلهية حق ، وأنها التى نبهت على هذه السعادة ودعت إليها ، التى هى المعرفة بالله ــ عز وجل ــ وبمخلوقاته ، فإن ذلك متقرر عند كل مسلم من الطريق الذى اقتضته جبلته وطبيعته من التصديق ، وذلك أن طبائع الناس متفاضلة فى التصديق ، فمنهم من يصدق بالبرهان ، ومنهم من يصدق بالأقاويل

---

(١) الغزالى [المضنون الصغير] ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ ــ طبعة مكتبة الجندى ــ ضمن مجموعة [القصور العوالى] .

الجدلية تصديق صاحب البرهان بالبرهان ، إذ ليس في طباعه أكثر ــ من ذلك . ومنهم من يصدق بالأقاويل الخطابية كتصديق صاحب البرهان بالأقاويل البرهانية . وشريعتنا قد دعت الناس من هذه الطرق الثلاث . . وذلك خُصن عليه الصلاة والسلام بالبعث إلى الأحمر والأسود . أعني لتضمن شريعته طرق الدعاء إلى الله تعالى . وذلك صريح في قوله تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [1].

وهذا التمايز بين الناس ــ حكماء .. وجمهورا .. ومتوسطين بينهما ــ ليس في تمايز الحقائق والمعاني التي يدركها التي يدركها فريق عن الفريق الآخر .. وإنما هو في " القدر والنصيب " الذي يستطيع إدراكه كل فريق من ذات الحقيقة الواحدة .. وبعبارة ابن رشد :

" فالطريقة الشرعية التي دعا الشرع منها جميع الناس على اختلاف فطرهم ، إلى الإقرار بوجود الباري سبحانه .. والتي نبه الكتاب العزيز عليها ، واعتمدتها الصحابة .. تنحصر في جنسين . دليل العناية ، ودليل الاختراع .. ولقد تبين أن هاتين الطريقتين هما بأعيانهما طريقة الخواص ــ وأعني الخواص العلماء ــ وطريقة الجمهور . وإنما الاختلاف بين المعرفتين في التفصيل ، أعني أن الجمهور يقتصرون عن معرفة العناية والاختراع على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على علم الحس ، وأما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس

---

(١) النحل : ١٢٥ .

ما يدرك بالبرهان ، أعنى من العناية والاختراع .. والعلماء ليس يفضلون الجمهور فى هذين الاستدلالين من قبل الكثرة فقط ، بل ومن قبل التعمق فى معرفة الشيء الواحد نفسه . فإن مثال الجمهور فى النظر إلى الموجودات مثالهم فى النظر إلى المصنوعات التى ليس عندهم علم بصنعتها ، فإنهم إنما يعرفون من أمرها أنها مصنوعات فقط وأن لها صانعا موجودا . ومثال العلماء فى ذلك مثال من نظر إلى المصنوعات التي عندهم علم ببعض صنعتها وبوجه الحكمة فيها . أما مثال الدهرية فى هذا ، الذين جحدوا الصانع سبحانه ، فمثال من أحس مصنوعات فلم يعترف أنها مصنوعات ، بل ينسب ما رأى فيها من الصنعة إلى الاتفاق والأمر الذى يحدث من ذاته .. "[1] .

* وإذا كان الغزالى قد دعا إلى منع غير الراسخين فى العلم من التأويل .. فإن ابن رشد قد دعا إلى منع التأويل فى مبادئ الشريعة وفى المعجزات ــ أى فيما لا تدركه العقول الإنسانية ــ حتى على الحكماء من الفلاسفة .. فقال :

" فإن الحكماء من الفلاسفة ليس يجوز عندهم التكلم ولا الجدل فى مبادئ الشرائع ، وفاعل ذلك عندهم يحتاج إلى الأدب الشديد ، وذلك أنه لما كانت كل صناعة لها مبادئ ، ووواجب على الناظر فى تلك الصناعة أن يسلم مبادئها ، ولا يتعرض لها بنفى ولا إبطال ، كانت الصناعة العملية

---

(١) ابن رشد [مناهج الأدلة فى عقائد الملة] ص ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ . دراسة وتحقيق : د . محمود قاسم . طبعة القاهرة ١٩٥٥م .

الشرعية أحرى بذلك ، لأن المشى على الفضائل الشرعية هو ضرورى عندهم ، ليس فى وجود الإنسان بما هو إنسان ، بل وبما هو إنسان عالم ، ولذلك يجب على كل إنسان أن يسلم مبادئ الشريعة وأن يقلد فيها ، فإن جحدها والمناظرة فيها مبطلان لوجود الإنسان ، ولذلك وجب قتل الزنادقة . فالذى يجب أن يقال فيها : إن مباديها أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية ، فلابد أن يعترف بها مع جهل أسبابها ، ولذلك لا تجد أحدًا من القدماء تكلم فى المعجزات ، مع انتشارها وظهورها فى العالم ، لأنها مبادئ تثبيت الشرائع ، والشرائع مبادئ الفضائل ، ولا فيما يقال بعد الموت .

فإذا نشأ الإنسان على الفضائل الشرعية كان فاضلا بإطلاق ، فإن تمادى به الزمان والسعادة إلى أن يكون من العلماء الراسخين فى العلم ، فعرض له تأويل فى مبدأ من مباديها ، فيجب عليه أن لا يصرح بذلك التأويل ، وأن يقول فيه كما قال – تعالى – : ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ﴾ [1] .

إنه لا يجوز التأويل فى مبادئ الشريعة – [لأن التأويل هو عمل العقل فى الانتقال بدلالة اللفظ من الحقيقة إلى المجاز ، وفق قوانينه] – وهذه المبادئ الإلهية تفوق العقول الإنسانية .. وواجب كل إنسان أن يسلم بها ويقلد فيها .. هذه هى حدود الشرائع وحدود العلماء [2] .

---

(1) آل عمران : ٧ .

(2) ابن رشد [تهافت التهافت] ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، طبعة القاهرة ١٩٠٣م .

هكذا حدد ابن رشد حدود الشرائع ، ومباديها التى لا يجوز فيها الجدل ولا التأويل .. كما حدد حدود الجمهور وطريقتهم فى التصديق .. وحدود أهل الجدل من المتكلمين .. وكذلك حدود الحكماء والعلماء وسبيلهم البرهانى إلى التصديق .

* وكما نبه ابن رشد على مذهب السلف فى عدم التأويل ، نبه على أن ظهور التأويل فى الفكر الإسلامى قد ارتبط بتراجع التقوى فى المجتمعات الإسلامية .. فقال :

" إن الصدر الأول إنما صار إلى الفضيلة الكاملة والتقوى باستعمال هذه الأقاويل التى تبثت فى الكتاب العزيز " دون تأويلات فيها ، ومن كان منهم وقف على تأويل لم ير أن يصرح به .

وأما من أتى بعدهم ، فإنهم لما استعملوا التأويل قلّ تقواهم ، وكثر اختلافهم ، وارتفعت محبتهم وتفرقوا فرقًا ، فيجب على من أراد أن يرفع هذه البدعة عن الشريعة ،أن يعمد إلى الكتاب العزيز ، فيلتقط منه الاستدلالات الموجودة فى شيء شيء ، مما كلفنا اعتقاده ، ويجتهد فى نظره إلى ظاهرها ما أمكنه من غير أن يتأول من ذلك شيئًا ، إلا إذا كان التأويل ظاهرًا بنفسه أعنى ظهورًا مشتركا للجميع [1] .

* ومع كل هذه الضوابط التى أحاط بها ابن رشد قضية التأويل .. وتقديم أساليب القرآن فى الاستدلال وفى التصديق على غيرها من

---

(١) ابن رشد [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص ٦٥ ، دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة ، طبعة القاهرة ــ دار المعارف ــ ١٩٩٩م .

الأساليب .. رأيناه يؤكد على أن هذا التأويل الذى هو حق للخاصة من الراسخين فى العلم ، لا يصرّح به للعامة ، ولا يثبت فى الكتب الجمهورية — حتى ولو كان تأويلا صحيحا ، مستجمعا لشروط التأويل وضوابطه .. وبعبارته :

" .. فهذا التأويل ليس ينبغى أن يصرح به لأهل الجدل ، فضلا عن الجمهور ، ومتى صرح بشيء من هذه التأويلات لمن هو من غير أهلها .. أفضى ذلك بالمصرح له والمصرح إلى الكفر .. فليس يجب أن تثبت التأويلات الصحيحة فى الكتب الجمهورية ، فضلاً عن الفاسدة .. وأما المصرح بهذه التأويلات لغير أهلها فكافر .. " [1] .

* * *

هذا هو المنهاج الإسلامى فى :

* وحدة الحقيقة .

* وتعدد طرق التصديق بالحقيقة الواحدة ، تبعاً لتمايز مستويات المخاطبين والمكلفين بهذا التصديق .. مستويات :

١ــ أهل البرهان من الحكماء والعلماء الراسخين فى العلم .

٢ــ وأهل : الجدل ــ من المتكلمين .

٣ــ وأهل الخطابة والمواعظ .. من الجمهور .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٨، ٥٩ ، ٦١، ٦٢. وانظر كذلك [مناهج الأدلة] ص ٢٤٤، ٢٤٥.

وإذا كان هذا المنهاج الإسلامي بدهيا ، لا تختلف فيه ولا حوله الفطر السليمة والعقول المستقيمة .. فلقد جاء القرآن الكريم مزكيا له ومؤكدا عليه .. فرأينا فيه التمييز بين العلماء وبين الراسخين في العلم .. ووجدناه يدعو غير العلماء إلى الرجوع إلى أهل العلم ــ أهل الذكر ــ : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » [1] .

كما وجدنا واقع المجتمع الإسلامي في عصر النبوة تجسيدا لهذا المنهاج ..

* فالخطاب الإسلامي عام للكافة وللعالمين : « إن هو إلا ذكر للعالمين » [2]. « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » [3] . « تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » [4] .

* لكن المخاطبين بهذه الرسالة العامة والعالمية ليسوا سواء ، في مستويات التعقل أو في طاقات الفقه والاستيعاب .. ومن ثم فلقد تمايزت مستويات الخطاب الإسلامي وأساليبه لتناسب مستويات المخاطبين ، وكانت الأساليب القرآنية الفطرية مشتركة بين الجميع ووافية باحتياجات الجميع ..

* ولذلك ، رأينا مجتمع النبوة تجسيدا لهذا المنهاج .. فالذين آمنوا بالإسلام وعاصروا رسول الله ﷺ وصحبوه ، قد بلغ عددهم يوم وفاته ١٢٤,٠٠٠ لكن الذين كانت لهم قدم في العلم والجهاد والصحبة ــ من بين

---

(١) النحل : ٤٣ .

(٢) يوسف : ١٠٤ .

(٣) الأنبياء : ١٠٧ .

(٤) الفرقان : ١ .

هذا الجمهور ـ قد أحصاهم العلماء في كتب أعلام الصحابة ، فوجدناهم ـ كما في [أسد الغابة في معرفة الصحابة] لابن الأثير [٥٥٥هـ ـ ٦٣٠هـ ١١٦٠ ـ ١٢٣٣م] ـ أقل من ثمانية آلاف ـ ٧,٧٠٣ مع تفاوت في الفقه وفي الرسوخ العلمي بين هذه النخبة والصفوة التي تخرجت في مدرسة النبوة ، على عهد رسول الله ﷺ الأمر الذي أكد ـ دائما وأبدا ـ تمايز مستويات الخطاب الإسلامي بتمايز مستويات المخاطبين بهذا الخطاب .

ـ ٥ ـ

ثورة الإعلام المعاصر .. وإشاعة فتنة التكفير بين الجماهير

وإذا كانت ثورة الاتصالات المعاصرة قد مثلت نعمة كبرى من نعم الله في العلم الحديث ، عندما يسرت على الناس سبل المعرفة ، وأتاحت ثمرات العقول الإنسانية لجماهير الأمم والشعوب من مختلف الحضارات والقارات والطبقات .. فإن لهذه الثورة سلبيات عديدة ، منها ـ فيما يتعلق بموضوع بحثنا ـ نقل كثير من المسائل الجدلية والخلافية من مصادرها المتخصصة ، والمقصورة على العلماء المتخصصين إلى الكتب الجماهيرية والمواقع المتعددة على " الشبكة العالمية للمعلومات " وهي كتب ومواقع " غدت ـ في أحيان كثيرة ـ تغرى وتستدرج جمهورا كبيرا من غير المتخصصين ، بل وغير المؤهلين للاطلاع على مسائل وقضايا ومجادلات تزعزع ما لدى الجمهور من اليقين ، دون أن يكون هذا الجمهور قادرا على تحصيل يقين بديل لذلك الذى زعزعته هذه الجدليات وما فيها من شبهات كما تنشر هذه الكتب الجماهيرية ومواقع " الإنترنت " ـ وبعض الفضائيات ـ خلافات الفرق وصراعات المذاهب وجدليات التيارات الفكرية بين العامة ، فتشعل نيران التعصب والتمزق والتشرذم بين جماهير أمة الإسلام .

* لقد نقلت وسائل الإعلام والاتصال هذه كثيرا من مسائل علم الكلام ــ الفلسفية ــ وأدلتها الجدلية ــ وهى أدلة لا تحقق طمأنينة إيمانية ـ لأنها ليست الأدلة الفطرية ـ نقلتها إلى عامة الجمهور وجمهور العامة .

* وبعد أن كانت " الجدليات الكلامية " سلاحا فى مواجهة خصوم الإسلام ، وفى التدافع بين المؤمنين والمعاندين .. نقلت كثير من المنابر الإعلامية و" مواقع الإنترنت " ــ التى أنشأتها مذاهب وتيارات إسلامية ــ نقلت هذه " الجدليات الكلامية " إلى العامة والجمهور .. حتى لقد رأينا أخطر القضايا ــ وهى قضية تكفير من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ــ يشيع الحديث عنها والجدل حولها والتقاذف بها بين من لا يحسن الفقه لفروع العبادات والمعاملات ، فضلا عن الفقه لدقيق الكلام فى أصول الاعتقادات !! .. بل لقد غدت " شهوة الشعب " فنا من الفنون التى يتبارى فى عرض فصوله المتفرغون له .. ويسعى لإدمان مشاهدته ، وتفريغ الغرائز الصراعية فى متابعته جمهور عريض من الناس !! ..

* فبعد أن كان المنهاج الإسلامى يدعو إلى [إلجام العوام عن علم الكلام] ..وبعد أن كنا نقرأ فى مصادر هذا العلم ــ على لسان حجة الإسلام أبو حامد الغزالى ، وغيره ــ :

" التحذير من تكفير الفرق ، وتطويل اللسان فى أهل الإسلام ، وإن اختلفت طرقهم ، ما داموا متمسكين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، صادقين بها، غير مناقضين لها.. لأن الكفر حكم شرعي لا يُدرك إلا بمدرك شرعى ، من نص أو قياس على منصوص .. ولا يلزم كفر المؤولين ما داموا يلازمون قانون التأويل .. وأصول الإيمان ثلاثة ، هى :

الإيمان بالله ، وبرسوله ، وباليوم الآخر ، وما عداه فروع .. ولا تكفير في الفروع أصلاً ، إلا في مسألة واحدة وهي أن ينكر أصلاً دينيًا علم من الرسول ﷺ بالتواتر .. فالتكفير فيه خطر ، والسكوت لا خطر فيه .. والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة ـ [مصة] ـ من دم مسلم .. والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على من يغلب عليهم الجهل .. وأكثر الخائضين في هذا التكفير إنما يحركهم التعصب واتباع الهوى دون النظر للدين .. والعصمة للدم مستفادة من قول لا إله إلا الله قطعاً ، فلا يُدْفعُ ذلك إلا بدليل قاطع .. "[1] .

بعد أن كنا نقرأ هذا الكلام النفيس لحجة الإسلام الغزالي .. ونقرأ ـ كذلك ـ للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م] قوله :

" أصل من أصول الأحكام في الإسلام : البعد عن التكفير .. ولقد اشتهر بين المسلمين وعُرف من قواعد دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حُمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر "[2] .

بعد أن كنا نقرأ ذلك .. ونقف عند حدوده .. أصبح التكفير مادة من مواد الإعلام الجمهوري التي تشيع هذه " الفاحشة الفكرية " بين ملايين

---

(١) الغزالي [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ١٤٣ ، ١٤٤ . طبعة القاهرة ـ مكتبة صبيح ـ بدون تاريخ .

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٣ ص ٣٠٢ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة القاهرة ـ دار الشروق ١٩٩٣م .

العوام .. حتى لقد تحولت بعض المنابر الإعلامية والمواقع على الشبكة العالمية للمعلومات إلى آليات لإشاعة الريب والشكوك وزعزعة اليقين والطمأنينة لدى كثير من الناس .. ومن ثم وسيلة لإشاعة المزيد من التمزق والافتراق بين صفوف الأمة ، وجعل بأسها بينها شديدا ، الأمر الذى يوهن من بأسها فى مواجهة الأعداء .. وذلك على العكس من الصورة التى كانت لهذه الأمة فى صدر الإسلام : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداءُ على الكفار رحماء بينهم ﴾ [1] .

.. ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ [2] .

* وإذا كان الاختلاف سنة من سنن الله ـ فى كل عوالم الخلق .. وميادين الفكر ـ فإن اتفاق الأمة واجتماعها على الجوامع الخمسة المكونة للأرض المشتركة بين شعوبها وأجناسها وقومياتها وأوطانها ومذاهبها ـ وهى جوامع وحدة :

١ـ العقيدة ..

٢ـ والشريعة ..

٣ـ والحضارة ..

٤ـ والأمة ..

٥ـ ودار الإسلام ..

---

(١) الفتح : ٢٩ .

(٢) الأنفال : ٦٣ .

هو الشرط لجعل الاختلاف ـ فى الفروع ، كالفقه والسياسة مثلا ـ ظاهرة صحية ، تفتح أبواب السعة والرحمة والتيسير لجمهور المسلمين ..

أما الخلاف فى الأصول ـ وخاصة فى أصول الاعتقاد ـ فإنه هو الذى يفقد الأمة أساس وحدتها ، ويجعل تفرقها شيعا فى أصول الدين والاعتقاد ..

***

وإذا نحن شئنا أن نضرب أمثلة على فاحشة الفكر التكفيرى ، الذى تقذف به تيارات فكرية .. ومذاهب كلامية .. وطرق صوفية إلى صفحات منابرها الإعلامية ومواقعها على الشبكة العالمية للمعلومات .. وتشيعه بين جماهير لا علاقة لأغلبيتها الساحقة بموضوعات العقائد ومباحثها .. فإننا واجدون الكثير .. والخطير .. والشر المستطير ! ..

وعلى سبيل المثال :

ـ ٦ ـ

التكفير الصوفى للوهابية

" فالطريقة العزمية " ـ وهى إحدى الطرق الصوفية الأكثر استنارة .. والأبعد عن الخرافات .. والأقرب إلى التجديد .. والتى أسسها الإمام المجدد الشيخ محمد ماضى أبو العزايم [١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م] ـ .. هذه " الطريقة " قد احترفت ـ فى الكثير من منابر إعلامها وثقافتها ـ مع الأسف الشديد ـ قذف السلفيين ـ وخاصة شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ ـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨ م] والشيخ محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ ـ ١٢٠٦هـ ـ ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢ م] ـ والوهابية ـ بأبشع الاتهامات .. بما فى ذلك التكفير والإخراج من ملة الإسلام ! ..

ففي زعمهم ـ مثلا ـ أن عقائد الوهابية :

- " عقائد غنوصية وهندوسية "
- " وهى مذهب إرهابى .. وتيار إلحادى خطير "
- " وهذا الوباء الوهابى لابد من اجتثاث تجربة الخبيثة "
- " وهذه الطائفة المقلدة لمحمد بن عبد الوهاب مجسمة مكفرة "
- " وهم مبتدعة خراصون .. "[1] .

---

(١) انظر هذه الأحكام ـ وأمثالها ـ فى كتاب [خطر تقسيم التوحيد على عقائد المسلمين] ص ٥،٦،١٦،٣٦ طبعة القاهرة ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م .. وهو كتاب صدر ضمن سلسلة كتب شهرية ـ صدر منها الآن أكثر من عشرين كتابا ـ وجميعها موضوعة على شبكة الإنترنت .

أما شيخ الإسلام ابن تيمية ــ والذى يعده علماء مدرسة الإحياء والتجديد فى عصرنا الحديث من أبرز مجددى الإسلام ــ فإنه ــ بنظر " الطريقة العزمية " ــ وعلى صفحات إعلامها :

* " المقتدى بأسلافه كلاب النار الحروريين ــ [الخوارج] ــ.. والذين كفروا كثيرا من الصحابة .. وذلك عند ما حمل الآيات الواردة فى الكفار على المؤمنين " .

* "وبضاعته ــ من السب والقذف والتكفير ــ هى بضاعة سفلة الناس "

* " وهو جاهل بأصول الدين جهلا مركبا .. وقد حكم على نفسه بالشرك وعبادة غير الله وهو لا يشعر ، فصدق عليه المثل العربى : (رمتنى بدائها وانسلت).. "

* " وهو مكذب لنصوص كتاب الله تعالى وصريح سنة نبيهﷺ .. ومرتكب بذلك جرما عظيما .. وصاحب حكم فاجر .. وملبس وكذاب وجبان .. وجاهل باللغة العربية وبأصول الدين .. "

* " وهو الذى استبدل عقيدة التثليث بعقيدة التوحيد عندما اخترع (توحيد الألوهية) فشاق به رسول الله ، واتبع فيه غير سبيل المؤمنين ، زيادة على افترائه على الله فى كتابه العزيز .. لقد حاول ابن تيمية جاهدا أن يدخل عقيدة التثليث فى عقيدة المسلمين ، فلما عجز عن ذلك اكتفى بتقسيم التوحيد إلى قسمين هما توحيد الألوهية (الأب) وتوحيد الربوبية (الابن) .. ولقد احتار ابن تيمية فى كيفية إدخال التثليث فى عقيدة المسلمين فلم يتمكن إلا من إدخال (الأب والابن) .. وجاء محمد بن عبد الوهاب ــ فى القرن الثانى عشر الهجرى .. بإيعاز من ابن تيمية ــ بما عجز عنه ابن تيمية .

وربـط عقيدة التثليث باضافة توحيد الأسماء والصفات (الروح القدس) ..

[illegible] أن نؤرخ لدخول التثليث فى عقيـــدة بعـــض المســلمين ، فلــن [illegible] قبــــل القـــرن الثــــانى عشـــر الـــهجرى ، الـــذى ظـــهر فيـــه ابن عبد الوهاب ..

* والمقصد من إدخال عقيدة التثليث فى عقيدة المسلمين هو : مســـاواة المسلمين الموحدين بغيرهم من الأمم الوثنية والنصرانية ، مع التأكيد علـــى أن الأمة الإسلامية مشركة ما عدا ابـــن عبـــد الوهـــاب وأتباعـــه دعـــاة التثليث .. (1) .. " ولذلك ، فعلى الأمة أن تنتبه إلى هذا الوباء الرهيـب .. الذى هو السبب فيما وصلت إليه الأمة من هوان .. وتجتث هذه الشـــجرة الخبيثة من فوق الأرض حتى لا يبقى لها قرار .. " (2) .

* " لقد سن ابن تيمية للوهابية ـــ وهو جاهل بالدليل وبـــأصول الفقـــه جهلا مركبا ، كما هو جاهل باللغة وبأصول الدين ـــ سن للوهابية انتـــهاك حرمة النبى ﷺ .. ولذلك استحق أن يوصف بالخبيث .. المكابر .. ناقص العقل .. الذى فى قلبه مرض الزيغ المتتبع ما تشابه من الكتـــاب والســـنة

---

(1) المرجع الســـابق ، ص٦٦،٥٦ ، ٦٧،١٤٤ ، ٧٢ ، ٨١،٨٠ ، ٨٤ ، ١٠٠ ، ٩٠ ، ١٤٧ ، ١٥٥ وانظر ـ كذلك ـ كتاب [العقائد الوثنية والشرائع الصفوية] ـ فى ذات السلسلة ـ ص [illegible] ، ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٢ طبعة القاهرة ٢٠٠٥ م .

(2) انظر : فى ذات السلسلة من الكتب ـ كتاب [ليسوا من أهـــل السنـــة] ص ١٢ طبعـــة القاهرة سنة ٢٠٠٥م .

ابتغاء الفتنة .. والمكذب لرب العالمين .. والخارج من الدين .. والمـزدرى بأصفيائه المنتخبين وخلفائهم الراشدين وأتباعهم الموفقين"!! [1].

تلك نماذج ـــ مجرد نماذج ـــ من "الفحش الفكرى" الذى قدمته ـــ وتقدمه ـــ سلسلة من الكتب الجمهورية ، التى تصدر شهريا .. والتى صدر منـــها ـــ عند كتابة هذه الدراســة ـــ أكثر من عشرين كتابا !! والتى توضـــع علـــى موقع " الطريقة العزمية " على الشبكة العالمية للمعلومـــات !! .. لتقـــدم " الفتنة الفكرية " لعامة المسلمين .. ولتقدم لأعداء الإســـلام مـــادة غزيـــرة وخطيرة فى حربهم على الوهابية التى وضعها الأمريكان ويضعونـــــها ـــ بعد قارعة " سبتمبر ٢٠٠١ م ـــ فى مستوى الشيوعية .. ويسمونها الفاشية الإسلامية !! ويشنون عليها أشرس الحملات والتهجمات !! ..

لقد طلب مجمع البحوث الإسلامية " بالأزهر الشريف ـــ منـــع هـــذه الكتب من التداول ، درءاً للفتنة بين المسلمين .. لكـــن الشـــبكة العالميـــة للمعلومات قد أتاحت ـــ وتتيح ـــ الاطلاع عليها لجمهور أوسع وأعـــرض من جمهور القراء للكتاب ! ..

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٧ ، ١٣٧، ١٥٤، ١٥٥ ، ١٥٧ .

-٧-

التكفير الوهابى للشيعة .. والصوفية .. والأشعرية

ولم تكن السلفية الوهابية ــ التى تعرضت وتتعرض للتكفير من قبل بعض الصوفية .. ومن قبل الشيعة ــ .. لم تكن أقل حظا من خصومها فى تبادل تهمة التكفير .. والتقاذف بها .. سواء كان ذلك فى كتبها الجمهورية أو على مواقعها على الشبكة العالمية للمعلومات .. ففى كل منابر الإعلام هذه نجد شيوع هذه " الفاحشة الفكرية " ــ تهمة التكفير ..

* فالصوفية ــ بنظر هذه السلفية الوهابية ــ هم : " مشركو العصور المتأخرة .. وهم أشد كفرا من كفار قريش .. ذلك أن كفار قريش كانوا إذا ضاقت بهم الحيل ، وعلموا عجز آلهتهم عن تحقيق مرادهم ، فزعوا إلى الله تعالى ، أما هؤلاء الصوفية ــ كفار الأزمنة المتأخرة ــ فشركهم بالله يزداد فى المصائب والمحن ، فيفزعون إلى آلهتهم : إلى القبور والأولياء ، وينادونها بالغوث والمدد والأخذ باليد .. فهم أشد كفرا من أبى جهل وأبى لهب .. " !!

* " وأتباع هذه الطرق الصوفية : ملاحدة .. وزنادقة ..وقبوريون .. ومنحرفون .. وأمرهم واضح فى الضلال والبعد عن الصراط السوى " !!

* " والفقه والتصوف لا يجتمعان ..ومن كان فقيها صالح الحال ، ثم تصوف ، فإنه ينقلب إلى الأسوأ .. وذلك لأن التصوف هـــو الأخطبـــوط والسرطان الفتاك .. والبلاء الماحق .. الذى تشيع فيه التعـــاليم الوثنيـــة ، وعلى رأسها عقيدة الاتحاد والحلول ووحدة الوجود " .

* " والصوفية : ردة جاهلية .. ونتاج وثنى صريح جاء من الـــهند أو من فارس .. وأصحاب هذه الردة الجاهلية إنمــا يعبـــدون الأضرحـــة والأولياء " .

* هكذا .. وبهذه الأحكام التكفيريـــة ــ ومثلـــها كثـــير ــ طفحـــت صفحات المواقع السلفية الوهابية على الشبكة العالمية للمعلومات ــ حـــول التصوف والمتصوفين ..! .

* * *

كذلك تكفّر هذه السلفية الوهابية كل مذاهب الشيعة وفرقها :

" فمذهبهم هو مذهب الضلال .. وأعمالهم شركية ، كالاستغاثة بعلـــى والحسين ــ رضى الله عنهما ــ "

* كما تجتهد هذه السلفية الوهابية فى استخراج " الفواحش الفكريـــة الشيعية " ، التى تحكم بالكفر والردة واللعن على صحابة رســـول الله ﷺ وعلى جمهور أهل السنة .. استخراج هذه " الفواحش الفكرية " من بطـــون الكتب التراثية للشيعة ، لتعيد نشرها وإشاعتها بين العامة والجمهور !! ..

* * *

بل ولا تنسى هذه السلفية الوهابية أن تعمم " فواحشها الفكرية : على الأشعرية ــ الذين يمثلون ٩٩% من جمهور أهل السنة والجماعة " ــ وذلك عندما تحكم على عقيدتهم .

" بالفساد .. والتبديع .. والتفسيق " وأحيانا " بالتكفير .. أو ما يشبه التكفير " !! ..

وتنشر ذلك " الفحش الفكرى " على صفحات مواقعها بالشبكة العالمية للمعلومات " .

* * *

وهكذا تحولت الكتب الجمهورية ، ومواقع الإنترنت ــ عند هذه السلفية الوهابية ــ إلى ساحة يتقاذفون فيها مع خصومهم هذه " الفواحش الفكرية " ، التى تمزق وحدة الأمة الإسلامية .. وتوهن عزيمتها ومنعتها فى مواجهة أعدائها ــ الذين تجاوزوا خلافاتهم التاريخية .. وتناقضاتهم الدينية .. وتحالفوا جميعًا لاجتياح عالم الإسلام وأمة الإسلام ودين الإسلام !! ..

- ٨ -

النزعة التكفيرية عند الشيعة

وإذا كانت الشيعة ـ بفرقها المختلفة : المعتدلون منهم ـ كالزيدية ـ والمتوسطون منهم ـ كالإثنى عشرية ـ .. والغلاة منهم ـ كالإسماعيلية والنصيرية .. والدروز ـ إنما يمثلون أقل من ١٠% من تعداد المسلمين .. بينما يمثل أهل السنة والجماعة ٩٠% من تعداد الأمة .. فإن وقوع الشيعة فى مستنقع التكفير لأهل السنة قد شمل جمهورهم ـ باستثناء الزيدية ـ .. بينما لم يقع فى مستنقع التكفير للشيعة ـ من أهل السنة ـ سوى قطاع من السلفيين ، لا يتجاوز عددهم الملايين التى تعد على أصابع اليدين .

بل إن تراث الشيعة ، فى المصادر المعتمدة ، التى تدرس حتى اليوم فى الحوزات العلمية ، والتى تكون العقل الفقهى للمراجع الشيعية الذين يقودون جماهير المقلدين .. إنما يعم ـ هذا التراث ـ " فاحشة التكفير " لتشمل جمهور صحابة رسول الله ﷺ وأزواجه .. أى أنهم يعممون هذه " الفاحشة " على جمهور الأمة ، بأجيالها المتتابعة ، منذ صدر الإسلام وحتى هذه اللحظات !!

* لقد طفحت " الأحاديث " التى نسبوها إلى أئمتهم ، وامتلأت مصادرهم فى العقائد .. وأصول الدين .. والتفسير للقرآن الكريم .. وكتب

الرجال .. والتاريخ .. بالروايات التى تعمم فاحشة التكفير والارتداد واللعن لجمهور الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ وجمهور أمة الإسلام .

ووضعت هذه " الفواحش الفكرية " على العديد من المواقع على الشبكة العالمية للمعلومات .. سواء من قبل متعصبي الشيعة ، أو من قبل خصومهم السلفيين !!

ومن هذه " الفواحش الفكرية التكفيرية " ــ على سبيل المثال ــ :

* الحكم بالكفر والردة على أبى بكر الصديق .. وعمر الفاروق .. وعثمان ذى النورين ــ رضى الله عنهم ــ .. فلقد جاء فى (**الأصول من الكافى**) للكلينى (٣٢٩هـ/٩٤١م) [١] :

" عن أبى عبد الله ــ جعفر الصادق ــ أن الآية ﴿ **إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا** ﴾ [٢] . قد نزلت فى أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وكذلك آية : ﴿ **إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم** ﴾ [٣] . وأنهم (آمنوا بالنبي في أول الأمر ، وكفروا حين عرضت عليهم ولاية علىّ بن أبى طالب .. وأنهم ارتدوا عن الإيمان فى ترك ولاية علىّ) !! [٤] .

---

(١) هذا الكتاب ــ عند الشيعة الإثنى عشرية ــ بمثابة (صحيح البخارى) عند أهل السنة .. والكلينى هو أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكلينى الرازى ــ المتوفى سنة ٣٢٩هـ .

(٢) آل عمران : ٩٠ .

(٣) محمد : ٢٥ .

(٤) (الكافى) جـ١ ، ص٤٢٠ . طبعة دار الكتب الإسلامية ، بيروت .

* كما ينسب الكليني – في (الروضة من الكافي) – إلى أبي عبد الله – جعفر الصادق – في تفسير الآية : ﴿ ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ [1] . أنهما أبو بكر وعمر !! [2] .

* أما المجلسي – محمد باقر – صاحب (مرآة العقول) – فإنه يقول في شرحه للكافي ، ورواية الكليني هذه – جـ٢٦ ، ص٤٨٨ :

" إن الجن المذكور في الآية هو عمر بن الخطاب ، سمي بذلك لأنه كان شيطاناً ، إما لأنه كان شرك شيطان لكونه ولد زنى ، أو لأنه في المكر والخديعة كالشيطان " !!

* وينسب الكليني إلى أبي عبد الله – جعفر الصادق – : أن هؤلاء الخلفاء الثلاثة – أبو بكر وعمر وعثمان . (لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب عظيم) !! [3] .

* ويقول المجلسي في (العقائد) ص٥٨ :

" إن مما عُدَّ من ضروريات دين الشيعة الإمامية : البراءة من أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية " ، كما يصفهم – في كتابه (حق اليقين) ص٥١٩ – بأنهم " الأصنام الأربعة " !! .. وأنهم وأتباعهم وأشياعهم " شر خلق الله على وجه الأرض " !!

---

(١) فصلت : ٢٩ .

(٢) الكليني (الروضة من الكافي) جـ٨ ، ص٣٣٤ .

(٣) (الكافي) جـ١ ، ص٣٧٣ .

كما يروى ــ فى كتابه (بحار الأنوار) جـــ٦٩ ، ص١٣٧ ــ عــن مولى لعلى بن الحسين ، قوله فى أبى بكر وعمر : أنهما " كافران ، كــافر من أحبهما " !! ..

* أما الكركى ــ فى كتابه (نفحــات اللاهــوت فــى لعــن الجبــت والطاغوت) ص١٤٠ ــ فيقول عن عثمان بن عفان ﷺ : " إن من لم يجد فى قلبه عداوة لعثمان ، ولم يستحل عرضه ، ولم يعتقد كفره ، فهو عدو لله ورسوله ، كافر بما أنزل الله " !!

* بل لقد استحب الشيعة الإمامية ــ وبعضهم أوجب [1] ــ لعن أبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية .. ولعــن عائشــة وحفصــة .. وهنـد ــ زوج أبى سفيان ــ وأم الحكم ــ أخت معاويــة ــ .. لعنــهم بأســمائهم عقــب كل صلاة !!

وذكر الحر العاملى ــ فى كتابه (وسائل الشيعة) جـ٢ ، ص١٠٣٧ باباً عنوانه : (استحباب لعن أعداء الدين عقيــب الصــلاة بأســمائهم) .. ونسب ذلك إلى أبى عبد الله ــ جعفر الصادق ــ زاعماً أنه " كــان يلعــن دبر كل مكتوبة أربعة من الرجال وأربعاً من النساء " !!

* وذكر المرعشى ــ فى كتابه (إحقاق الحــق) جــــ١ ، ص٩٧ ، وصف أبى بكر وعمر " بصنمى قريش " .. وأثبت نص الدعاء عليهما !! وهو نص طويل ، تطبعه وتذيعه دوائر شيعية .. وتضعــه علــى مواقــع الإنترنت .. فتشيع ما فيه من الفواحش الفكرية بين العامة ، مسلمين وغير

---

(١) لابن المطهر الحلى كتاب (الألفين) يورد فيه ألفي دليل على وجوب لعن أبــى بكــر وعمر ــ رضى الله عنهما وأرضاهما ــ !! ..

مسلمين !! .. وتنافسها فى إشاعة هذا " الدعاء " السلفية الوهابية ، لتفضح الشيعة بين الناس !!

* وعلى الرغم من أن الإمام علىّ بن أبى طالب ـ كرّم الله وجهه ـ قد شهد بالإيمان والأخوة فى الدين حتى للذين حاربوه وقاتلوه ، لأن الخلاف والقتال إنما كان فى السياسة والخلافة ـ وهى من الفروع ، التى يؤجر حتى المخطئ فيها .. ولم يكن الخلاف فى أصول الاعتقاد الدينى فقال كرّم الله وجهه عندما سئل عن رأيه فى أهل الشام ـ معاوية ابن أبى سفيان وأنصاره ـ إبان قمة الصراع بينهما فى موقعة " صفين " (٣٧هـ/٦٥٧م) :

" لقد التقينا ، وربنا واحد ، ونبينا واحد ، ودعوتنا فى الإسلام واحدة ، ولا نستزيدهم فى الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا ، والأمر واحد ، إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ، ونحن منه براء ..

إننا ـ والله ـ ما قاتلنا أهل الشام على ما توهم هؤلاء ـ (الخوارج) من التكفير والافتراق فى الدين ، وما قاتلناهم إلا لنردهم إلى الجماعة ـ (أى الجماعة السياسية) ـ وإنهم لإخواننا فى الدين ، قبلتنا واحدة ، ورأينا أننا على الحق دونهم " (١) .

---

(١) الباقلانى : (التمهيد فى الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة) ص٢٣٧ ، ٢٣٨ ، تحقيق : محمود الخضيرى ، د . محمد عبد الهادى أبو ريدة . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٤٧م ، وابن أبى الحديد : (شرح نهج البلاغة) جـ١٧ ، ص١٤١ . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥٩م .

على الرغم من ذلك ، ينقل الشيخ المفيد ــ في كتابه (أوائل المقالات) ص٤٥ ــ اتفاق الإمامية ــ على تكفير الذين قــاتلوا عليًــا .. ويصفـهم " بالناكثين والقاسطين والكفار والضلال الملعونين المخلدين في النار " !!

* ويحكم شيخ الشيعة جعفر مرتضى ــ في كتابه (حديــث الإفـك) ص١٧ على أم المؤمنين عائشة ــ رضي الله عنها ــ بالكفر !!

ويقول عنها يوسف البحراني ــ في كتابه (الشهاب الثاقب في بيــان معنى المناصب) ص٢٣٦ : " إنها ارتدت بعد موت النبي ﷺ كما ارتد ذلك الجم الغفير المجزوم بإيمانهم ســابقاً .. وأنــها مسـتحقة للنــار واللعــن والعذاب ، وإن ذلك من مستلزم مذهب الشــيعة وأحقيــة أئمتــهم الإثنــى عشر " !!

أما النجفي القمي ــ محمد طاهر بن محمد حسين الشيرازي النجفــي القمي ــ المتوفى سنة ١٠٩٨م ــ فيقول عن السيدة عائشة ــ رضــي الله عنها ــ في كتابه (الأربعين في إمامة الأئمة الطاهرين) ص٦١٥، ٦١٦ :

" ومما يدل على إمامة أئمتنا الإثنى عشر ، أن عائشة كافرة مستحقة للنار ، وهو مستلزم لحقية مذهبنا وحقية أئمتنا الإثنى عشر ، لأن كل مــن قال بخلافة الثلاثة ــ (أبي بكر ، وعمر ، وعثمــان) ــ اعتقـد إيمانــها وتعظيمها وتكريمها ، وكل من قال بإمامة الإثنى عشر . قال باســتحقاقها اللعن والعذاب " !!

* ولقد ذهب كبار علماء الشيعة الإثنى عشرية إلى تعميــم الحكــم بالكفر والشرك علــى كــل مــن عداهــم .. فالمجلســي ــ فــي كتابــه (بحار الأنوار) جــ٢٣ ص٣٩٠ ــ يقول :

" اعلم أن إطلاق لفظ الشرك والكفر على من لم يعتقد إمامة أمير المؤمنين والأئمة من ولده .. يدل على أنهم مخلدون في النار " !

ويؤكد على ذلك شيخهم عبد الله المامقاني – في كتابه (**تنقيح المقال**) جـ١ ص٢٠٨ – فيقول :

" وغاية ما يستفاد من الأخبار جريان حكم الكافر والمشرك في الآخرة على كل من لم يكن اثني عشرياً " !

* وحتى الخميني – في كتابه (الأربعين) ص٥١١–٥١٢ ، يجعل قبول الإيمان بالله ورسوله مقصوراً على الشيعة المؤمنين بالأئمة الإثنى عشر دون عداهم !

وكذلك الحال – عنده في قبول الأعمال .. فلقد عقد في هذا الكتاب فصلاً – ص٥١٢ – جعل عنوانه : (**فصل في بيان أن ولاية أهل البيت شرط لقبول الأعمال**) !! .. فكأن الاختلاف معهم حول أي من أئمتهم الإثنى عشر شرك محبط للإيمان .. ومحبط للأعمال الصالحات !! ..

* بل وبلغ بهم الأمر حد إعلان أن المفارقة بينهم وبين سائر من عداهم إنما تشمل المفارقة في الألوهية والنبوة !! .. فذكر شيخهم نعمة الله الجزائري – المتوفى سنة ١٢١٢هـ – في كتابه (**الأنوار النعمانية**) جـ٢ ، ص٢٧٩ (١) :

" إننا لم نجتمع معهم على إله ، ولا نبي ، ولا على إمام ، وذلك أنهم يقولون : إن ربهم هو الذي كان محمداً نبيُّه ، وخليفته أبو بكر ، ونحن

---

(١) طبعة مؤسسة الأعلى – بيروت .

لا نقول بهذا الرب ولا بذلك النبي ، بل نقول : إن الـرب الـذي خليفتـه أبو بكر ليس ربنا ، ولا ذلك النبي نبينا " !! ..

* ويروى الكليني هذا الحكم القاطع بكفر كـل مـن عـدا الشـيعة الإثنى عشرية .. يرويه ـ في (الكافي) جـ١ ، ص٢٢٣ ـ عن الرضا ، الذي يقول :

" إن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم ، أخذ الله علينا وعليهم الميثاق ، يردون موردنا ويدخلون مدخلنا ، ليس على ملة الإسلام غيرنـا وغيرهم إلى يوم القيامة " !!

* وإذا كانوا يطلقون على كل من عدا فرقتهم ـ الإثنى عشـرية ـ صفة "النواصب" ـ أي الذين ناصبوا أئمتهم العداء ـ .. فإن "النـاصبي" عندهم ـ كما يقول نعمة الله الجزائري ـ في كتابه (الأنـوار النعمانيـة) جـ٢ ، ص٣٠٦، ٣٠٧ ـ : " نجس ، وأنه شر من اليهودي والنصرانـي والمجوسي ، وأنه كافر نجس بإجماع علماء الإمامية " !!

وبعبارة شيخهم الكبير ومرجعهم محمد الشيرازي ـ في موسـوعته (الفقه) جـ٤ ، ص٢٦٩ :

" فإن من جحد إماماً من الأئمة الإثنى عشر ـ بمن في ذلك سـائر أقسام الشيعة غير الإثنى عشرية ـ هم " كمن قال إن الله ثالث ثلاثة " !!

* وحتى الإمام أبو القاسم الخوئي ـ وهو الذي توفي منـذ سـنوات قليلة ـ فإنه يقول ـ في كتابه (مصباح الفقاهة) جـ٢ ، ص١١ :

" إنه ثبت بالروايات والأدعية والزيارات جواز لعـن المخـالفين ، ووجوب البراءة منهم ، وإكثار السب عليهم ، واتهامهم ، والوقيعـة فيـهم

ــ أى غيبتهم ــ لأنهم من أهل البدع والريب ، بل لا شبهة فى كفرهم ، لأن إنكار الولاية والأئمة حتى الواحد منهم والاعتقاد بخلافة غيرهم .. يوجب الكفر والزندقة ، وتدل عليه الأخبار المتواترة الظاهرة فى كفر منكر الولاية " !!

* وإذا كان جمهور أهل السنة ، هم ــ فى العقائد ــ على المذهب الأشعرى ــ نسبة إلى إمام أهل السنة والجماعة أبو الحسن الأشعرى (٢٦٠ــ٣٢٤هــ/٨٧٤ــ٩٣٦م) ــ فإن الأشعرية ــ بنظر الشيعة الإثنى عشرية ــ كفار ، بل وأسوأ من المشركين والنصارى ! .. وبعبارة الشيخ نعمة الله الجزائرى ــ فى كتابه (الأنوار النعمانية) جــ٢ ، ص٢٧٨ ــ :

" فالأشاعرة لم يعرفوا ربهم بوجه صحيح ، بل عرفوه بوجه غير صحيح ، فلا فرق بين معرفتهم هذه وبين معرفة باقى الكفار .. فالأشاعرة ومتابعوهم أسوأ حالاً فى باب معرفة الصانع من المشركين والنصارى .. ولقد تباينا وانفصلنا عنهم فى باب الربوبية ، فربنا من تفرد بالقدم والأزل ، وربهم من كان شركاؤه فى القدم ثمانية " !!

* بل لقد صعد بعض علماء الشيعة بالمفارقة والعداء والتكفير من نطاق أصول الاعتقاد إلى نطاق " العنصرية " أيضاً .. فذكر الشيخ المفيد ــ فى كتابه (الأمالى) ص١٦٩ ــ :

" أنه ليس أحد طاهر المولد ، وليس أحد على ملة الإسلام إلا الشيعة " !! ..

* * *

هذه نماذج وأمثلة ــ مجرد نماذج وأمثلة ــ لهذا " الفحش الفكرى " ، الذى أثمره التعصب الطائفى والضلال المذهبى ضد جمهور أمة الإسلام ، الذين يعبدون الله وحده .. ويؤمنون بنبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ــ محمد بن عبد الله ﷺ ــ ويحبون آل بيته ، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ــ بنص القرآن الكريم : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ [1] .

* * *

وإذا كان هذا " الفحش الفكرى " قد ظل لقرون طويلة وقفاً على التدريس فى الحوزات العلمية الشيعية .. وعلى الباحثين فى أصول المذهب الشيعي وعقائده .. وتخفيه " التقية " فى أغلب الأحيان عن الثقافة العامة للشيعة .. فإن ثورة وسائل الاتصال الحديثة ــ بما فى ذلك " مواقع " الشبكة العالمية للمعلومات ــ قد أشاعت هذا " الفحش الفكرى " بين العامة والجمهور ، فأشعلت نيران الفتنة بين جماهير الأمة ، فى وقت تجتاح فيه " الصليبية ــ الصهيونية " أمة الإسلام وعالمه وحضارته ، دون تمييز بين الطوائف والمذاهب والأقطار والقوميات فى عالم الإسلام ! ..

بل إن المفارقات الغريبة قد جعلت نفراً من السلفيين ــ فى حربهم ضد الشيعة .. ومحاولتهم فضح نزعتهم التكفيرية ــ يسهمون فى إشاعة هذا " الفحش الفكرى " ، وذلك عندما ينقلونه من بطون الكتب التراثية

---

(١) الأحزاب : ٣٣ .

المتخصصة إلى الكتب الجمهورية ، ومواقع الشبكة العالمية للمعلومات !! [1] .

الأمر الذى يستدعى وقفة جادة نواجه بها هذا الخطر الذى يشعل نيران التكفير فى صفوف الأمة .. وينشر لهيب هذه النيران بين العامة والجماهير .

* * *

إن المجتمع الشيعى ــ فى الحوزات والجامعات ومؤسسات البحث والدراسة ــ يزخر بالعقلاء من الفقهاء والعلماء .. ونحن ــ عن موقع الحب والتقدير والإجلال ــ نتوجه إلى هؤلاء العلماء العقلاء .. فنقول لهم :

إن الذين أزالوا طاغوت الفرس والروم ــ قبل أربعة عشر قرناً ــ وفتحوا أبواب كل البلاد أمام الإسلام هم الصحابة ، الذين صنعوا هذا المجد التاريخي تحت قيادة أبى بكر الصديق (٥١ق.هـ ــ ١٣هـ/٥٧٣ــ٦٣٤م) والفاروق عمر بن الخطاب (٤٠ق.هـ ــ ٢٣هـ/٥٨٤ــ٦٤٤م) .. أى أن هؤلاء هم السبب ــ الذى يسره الله ــ لوصول الإسلام إلينا وإليكم .. ولولاهم فلربما كنتم تعبدون النار أو الصلبان أو العجل أبيس حتى هذه اللحظات !!

---

(١) انظر ــ على سبيل المثال ــ كتاب (الشيعة الإثنى عشرية وتكفيرهم لعموم المسلمين) تأليف عبد الله بن محمد السلفى . طبعة مكتبة الرضوان السلفية ــ كوم حماده ــ البحيرة ــ مصر سنة ٢٠٠٤م .. وكذلك العديد من المواقع السلفية على شبكة " الإنترنت " .

قيل يجوز – في العقل والمنطق والحكمة – أن نكفر ونلعن من كان السبب في نعمة الإسلام التي هي أعظم نعم الله علينا ؟!.

* لقد لقيت في طهران – في أولى زياراتي لها – واحدا من نبهاء الشيعة، الذين تجاوزوا – بالعقلانية والاستنارة – هذا التراث المظلم الذي يمزق وحدة الأمة الإسلامية.. وحدثني – يومئذ – عن لون من "الثقافة الشعبية" الشائعة في صفوف عوام الشيعة.. حدثني عن والدته، التي تتقرب إلى الله – سبحانه وتعالى – عقب كل صلاة، فتدعو – على مسبحتها – فتقول: " اللهم العن أبا بكر ثم عمر "!!!..

وإذا كنت قد شعرت بالحزن الشديد – يومئذ – لشيوع مثل هذا " الفحش الفكري " بين العامة من الشيعة.. ولجعل هذا " الفحش الفكري " ديناً وقربات يتقرب بها البعض إلى الله – سبحانه وتعالى – ! فإن الحزن الأشد قد أصابني عندما علمت أن هذا " الفحش الفكري " ليس مجرد تعصب أعمى يمارسه العامة.. وإنما هو " فكر مذهبي " تتناقله المصادر التراثية الشيعية التي تدرس في الحوزات العلمية، وتتشكل به وتصطبغ عقول الفقهاء والعلماء والمراجع التي يقلدها العوام.. بل وتطبعه وتوزعه.. بالمجان – دور نشر ومكتبات.. ويضعه البعض – من الشيعة أو من خصومهم – على مواقع الشبكة العالمية للمعلومات.. ليشيع بين العامة والجماهير!..

* وها هو المرعشي – القاضي ضياء الدين نور الله التستري (٩٥٦–١٠١٩هـ/١٥٤٩–١٦١٠م) يورد في كتابه (إحقاق الحق وإزهاق

الباطل) ـ جـ ١ ، ص٩٧ ـ دعاءهم على أبى بكر الصديق والفاروق عمر بن الخطاب ، الذى يزعمون أنهم يتقربون به إلى الله ! .. ونصه :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم صل على محمد وآل محمد . اللهم العن صنمى قريش وجبتيهما وطاغوتيهما ، وإفكيهما وابنتيهما[1] . الذين خالفا أمرك ، وأنكرا وحيك ، وجحدا إنعامك ، وعصيا رسولك ، وقلبا دينك ، وحرفا كتابك ، وعطلا أحكامك ، وأبطلا فرائضك ، وألحدا فى آياتك ، وعاديا أولياءك ، ووالياً أعداءك ، وخربا بلادك . وأفسدا عبادك .

اللهم العنهما ، وأتباعهما وأولياءهما ، وأشياعهما ، ومحبيهما[2] . فقد خربا بيت النبوة ، وردما بابه ، ونقضا سقفه ، وألحقا سماءه بأرضه وعاليه بسافله وظاهره بباطنه ، واستأصلا أهله ، وأبادا أنصاره ، وقتلا أطفاله ، وأخليا منبره من وصيه ووارث علمه ، وجحدا إمامته ، وأشركا بربهما ، فعظم ذنبهما وخلدهما في سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقى ولا تذر .

اللهم العنهم بعدد كل منكر أتوه ، وحق أخفوه ، ومنبر علوه ، ومؤمن أرجأوه ، ومنافق ولوه ، وولى آذوه ، وطريد آووه ، وصادق طردوه ، وكافر نصروه ، وإمام قهروه ، وفرض غيروه ، وأثر أنكروه ، وشر آثروه ، ودم أراقوه ، وخبر بدلوه ، وحكم قلبوه ، وكفر أبدعوه ، وكذب دلسوه ، وإرث غصبوه ، وفئ اقتطعوه ، وسحت أكلوه ، وخمس

---

(١) أى أمهات المؤمنين عائشة وحفصة ـ رضى الله عنهما ـ .

(٢) أى أن اللعن والدعاء ليس فقط على أبى بكر وعمر ، وإنما على جمهور الأمة الإسلامية ـ ٩٠% من المسلمين ـ !! ..

استحلوه ، وباطل أسسوه ، وجور بسطوه ، وظلم نشروه ، ووعد أخلفوه ، وعهد نقضوه ، وحلال حرموه ، وحرام حللوه ، ونفاق أسروه ، وغدر أضمروه ، وبطن فتقوه ، وضلع كسّروه (دقوه) ، وجنين أسقطوه ، وصك مزقوه ، وشمل بددوه ، وعزيز أذلّوه ، وذليل أعزّوه ، وحق منعوه ، وإمام خالفوه .

اللهم العنهما بعدد كل آية حرّفوها ، وفريضة تركوها ، وسنة غيّروها ، وأحكام عطّلوها ، ورسوم منعوها ، وأرحام قطعوها ، وشهادات كتموها ، ووصية ضيّعوها ، وأيمان نكثوها ، ودعوى أبطلوها ، وبيّنة أنكروها ، وحيلة أحدثوها ، وخيانة أوردوها ، وعقبة ارتقوها ، ودباب دحرجوها ، وأزياف لزموها ، وأمانات خانوها .

اللهم العنهما في مكنون السر ، وظاهر العلانية لعناً كثيراً دائماً أبداً سرمداً لا انقطاع لأمداه ، ولا نفاد لعدده ، لعناً يغدوا أوّله ولا يروح آخره ، لهم ولأعوانهم وأنصارهم ، ومحبيهم ومواليهم ، والمائلين إليهم ، والناهضين بأجنحتهم ، والمقتدين بكلامهم ، والمصدّقين بأحكامهم .

(قل أربع مرات) : اللهم عذّبهم عذاباً يستغيث منه أهل النار ، آمين رب العالمين .

(ثم تقول أربع مرات) اللهم العنهم جميعاً .

اللهم صل على محمد وآل محمد ، وأغنني بحلالك عن حرامك ، وأعذني من الفقر . ربِّ إني أسأت وظلمت نفسي ، واعترفت بذنوبي ، وها أنا بين يديك فخذ لنفسك رضاها . لك العتبى ، لا أعود ، فإن عدت

فعد عليّ بالمغفرة والعفو لك بفضلك وجودك ومغفرتك وكرمك يا أرحم الراحمين .

وصلّ الله على سيد المرسلين وخاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين برحمتك يا أرحم الراحمين " [1] .

* * *

فهل هذا ـ " الفحش الفكرى " ـ معقول ؟!

" وهل هذا يليق بمن يتحدثون عن وحدة الأمة الإسلامية فى مواجهة " " الصليبية ـ الصهيونية " التى تعصف بكل ما هو إسلامى ، دون تمييز بين مذاهب المسلمين ؟!

وهل نظل ـ هكذا ـ عاجزين ـ ولا أقول راضين ـ أمام هذه " الألغام المتفجرة " ، التى تستخدم صباح مساء فى كسر شوكة الوحدة الإسلامية ؟!

إننا نتوجه بهذه التساؤلات إلى العلماء العقلاء الذين تمتلئ بهم فضاءات الشيعة وجامعاتها .. ولا تخلو منهم الحوزات العلمية التى يتخرج منها هؤلاء العلماء ! ..

---

(١) (الشيعة الإثنى عشرية وتكفيرهم لعموم المسلمين) ص٤٣ـ٤٥ .

ـ ٩ ـ

حقائـــق .. وأوهـــام

عندما قامت الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩م ، بقيادة آية الله الخمينى ـ الذى حرك الجماهير الشعبية الإيرانية على نحو غير مسبوق فى التـــاريخ الإيرانى ـ .. بهرت هذه الثورة جماهير الأمـــة الإسلامية ؛ فتعـــاطفت معها ، ومنحتها التأييد والولاء ، على الرغم من الموقف المعـــادى لـــهذه الثورة من قبل الاستعمار والصهيونية والكثيرين من الحكـــام فـــى وطـــن العروبة وعالم الإسلام .

واليوم ، يتكرر ذات المشهد ـ من التـــأييد الشـــعبى الإســـلامى ـ إزاء الصمود البطولى الذى قام به المجاهدون من شـــباب " حـــزب الله " ـ الشيعى ـ فى لبنان ، أولئك الذين لقنوا الجيـــش الصـــهيونى ـ ومـــن ورائه أمريكا ـ درساً سيكون له ما بعده فى ســـجل الصـــراع التـــاريخى بين أمتنا الإسلامية وبين الصليبية الغربية وربيبتها الصهيونية ـ إن شـــاء الله ـ ..

* وكما حدث بالأمس ـ عندما قامت الثورة الإيرانية سنة١٩٧٩م ـ عندما حاول البعض ربط الثورة والثورية بالمذهب الشيعى ، وبثقافة الجهاد والاستشهاد لدى هذا المذهب ، للقيام بتحويل بعض الشباب عن المذهـــب السنى إلى التشيع .. تتكرر ذات الأفكار وذات المحاولات ، لإقناع بعـــض الشباب ، المنبهر بأداء المقاومة الشيعية فى لبنان بالتحول عن السنة إلـــى

الشيعة ، بدعوى الارتباط بين الثورية والروح الجهادية وبين الشيعة كمذهب وثقافة واتجاه ..

* وللإجابة على التساؤلات التي طرحها ويطرحها بعض الشباب حول هذا الموضوع ــ الهام والحساس ــ نقدم هذه الحقائق الفكرية والتاريخية ــ بل والمعاصرة ــ التي ترسم الصورة الصادقة ، من جميع جوانبها وزواياها ، أمام عقول الشباب .. وذلك إعانة لهم على التفكير الموضوعي السليم .. وهي حقائق نقدمها في عدد من النقاط :

(١)

يجب أن نميز بين الإعجاب بالمقاومة التي تقوم بها حركات التحرر الوطني والقومي والإسلامي ، وبين المذاهب والعقائد التي تعتنقها هذه الحركات .. فكل شعوب الدنيا ــ وعلى مر التاريخ .. ورغم تعدد دياناتها ومذاهبها ــ قد خاضت غمار الثورات .. وكثيرون منها قد مارسوا البطولات في مواجهة الغزاة والمستبدين .. ومن الخطأ البين أن يقودنا الإعجاب بثورات هذه الشعوب وبطولاتها إلى الإعجاب بدياناتها وعقائدها ومذاهبها ، فنتحول عن عقائدنا ومذاهبنا إلى هذه العقائد والمذاهب التي تؤمن بها تلك الشعوب ..

* لقد انبهر العالم كله ببطولات الجيش السوفييتي في معركة " ستالينجراد " ، التي فتحت الطريق أمام انهيار النازية والفاشية ــ في الحرب العالمية الثانية ــ .. وذلك دون أن ينبهر أحد بالعقيدة القتالية

للجيش الأحمر ، أو ينبهر بماركسية قائد ذلك الجيش " جوزيف ستالين " (١٨٧٩ـ١٩٥٣م) !

* ولقد أيدنا جميعاً المقاومة الفيتنامية الباسلة ، وأعجبتنا ببطولات الشعب الفيتنامي ضد الاستعمار الفرنسي والأمريكي .. لكننا لم نمنح هذا الإعجاب للبوذية الفيتنامية ، ولا لماركسية الحزب الشيوعي الفيتنامي ، الذى قاد هذا النضال وسطر تلك البطولات .. ومن ثم لم يتحول أحد منا إلى البوذية ولا إلى الشيوعية !..

* ولقد وقف أحرار العالم ــ من كل الديانات والمذاهب والفلسفات ــ مع المقاومة البطولية للشعب الفرنسي ضد الاحتلال النازى ــ إبان الحرب العالمية الثانية ــ وهى المقاومة التى قادها الشيوعيون الفرنسيون ، وانخرط فيها الوجوديون الفرنسيون .. وذلك دون أن يمتد هذا التأييد العالمى للشيوعية .. ولا للوجودية ، كمذاهب يعتنقها هؤلاء المقاومون !..

* واليوم يمنح أحرار العالم إعجابهم وتقديرهم لتيارات اليسار فى أمريكا الوسطى والجنوبية ــ من " كاسترو " ــ فى كوبا ــ إلى " تشافيز " ــ فى فنزويلا ــ .. هذا اليسار الذى يقاوم الطاغوت الإمبريالى الأمريكى وذلك دون أن يعنى هذا أن نتحول إلى المذاهب اليسارية التى يتمذهب بها هؤلاء المقاومون !..

* بل ولقد سبق لجماهير عريضة من شباب العالم أن فتنت بالمقاومة الأسطورية " لجيفارا " .. لكنها لم تفتن " بالماركسية .. اللينينية.. الماوية " التى حركت هذا البطل الأسطورى " جيفارا " !

وهكذا يستبين لنا أن الربط العضوى والحتمي بين " المقاومة " وبين " مذهب " أهلها .. ومن ثم الربط بين الإعجاب بهذه المقاومة وبين التحول إلى مذاهب أهلها .. هو وهم كبير وخطير ، يروج له بعض الخبثاء في أوساط الذين لا يعلمون ولا يفقهون ! ..

(٢)

ثم .. من قال إن التشيع قد ارتبط ــ تاريخياً ــ بالثورة والمقاومة لحكام الجور .. وأن أهل السنة قد كانوا مستسلمين ، أو أقل مقاومة من الشيعة عبر تاريخ الإسلام ؟! ..

إن هذه المقولة ــ التى يروج لها الخبثاء فى صفوف الجهلاء ــ هى الأخرى وهم من الأوهام .. بل ومضادة للحقائق الصلبة التى امتلأت بها صفحات التاريخ ..

* لقد فتح المسلمون الأوائل فى ثمانين عاماً أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون .. وأزالوا القوى العظمى التى استعمرت الشرق وقهرته ــ دينياً .. وثقافياً .. ولغوياً .. وحضارياً ــ لأكثر من عشرة قرون ــ من الإسكندر الأكبر (٣٥٦ــ٣٢٤ق.م) فى القرن الرابع قبل الميلاد ــ إلى " هرقل " (٦١٠ــ٦٤١م) ــ فى القرن السابع للميلاد .

وبهذا الفتح الإسلامى المبين ، فتح هؤلاء الفاتحون الطريق أمام انتشار الإسلام من المغرب ــ غرباً ــ إلى الصين ــ شرقاً ــ ومن حوض نهر الفولجا ــ شمالاً ــ إلى جنوبى خط الاستواء ..

وجميع هؤلاء الفاتحين ــ من الخلفاء والصحابة والمجاهدين ــ يتولاهم أهل السنة ، ويصلّون ويسلمون عليهم ، ويعتبرونهم الأئمة والقادة الذين أقاموا الدين ونشروه ، وأسسوا الدولة ومدوا لها الحدود .. وأتم الله على أيديهم هذه النعمة التى نعيش فيها وعليها حتى يومنا هذا .. بل وكانوا هم المؤسسين لقواعد الحضارة الإسلامية التى أنارت العالمين ..

بينما الشيعة ــ باستثناء الزيدية ــ قد حرموا أنفسهم ــ مع شديد الأسف ــ من هذا الرصيد التاريخى المجيد ، وذلك عندما حكموا على جمهور هذا الجيل الفريد ــ من الصحابة ــ بالكفر والردة .. بل وأوجبوا لعنتهم والبراءة منهم ــ والعياذ بالله ــ ! ..

لذلك ، كانت هذه الفتوحات وهذه البطولات ، التى لولاها لما دخلت شعوبنا فى دين الإسلام ، كانت رصيداً للتاريخ السنى فى ميادين الفتوحات والبطولات والتحرير للأرض وللضمير .. ولا أثر لها فى تاريخ الشيعة والتشيع ــ مع الأسف الشديد ــ ! ..

(٣)

وعندما جاء الغرب الصليبى ليختطف الشرق من التحرير الإسلامى ــ إبان الحروب الصليبية (٤٨٩ــ٦٩٠هــ/١٠٩٦ــ١٢٩١م) ــ رأيناه يغتصب القدس وفلسطين والشام من الدولة الفاطمية الشيعية ــ التى كانت عقيدتها الباطنية بداية الانحطاط فى التاريخ الإسلامى ــ كما يقول

جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ـ١٣١٤هـ/١٨٣٨ـ١٨٩٧م) [١] . ووجدنا ـ على العكس من ذلك ـ دول الفروسية الإسلامية السنية ـ وخاصة الأيوبية (٥٦٧ـ٦٤٨هـ/١١٧١ـ١٢٥٠م) والمملوكية (٦٤٨ـ٩٢٢هـ/١٢٥٠ـ١٥١٧م) ـ هى التى جاهدت وحاربت حتى استعادت الشرق وحررت مقدسات الإسلام من الصليبيين .

وإذا كان صلاح الدين الأيوبى (٥٣٢ـ٥٨٩هـ/١١٣٧ـ١١٩٣م) قد أصبح علماً على الجهاد الإسلامى عبر تاريخ الإسلام ، فإنه هو القائد السنى ، الذى خلص بلاد الإسلام من انحرافات الشيعة الإسماعيلية الباطنية .. كما خلص هذه البلاد من أشرس حملات الصليبيين .. بينما هو مرفوض عند الشيعة ـ مع الأسف الشديد ـ ! ..

وكذلك صنعت جماهير أهل السنة ، وجيوشهم وقياداتهم ، عندما حرروا ديار الإسلام من العروة التترية المدمرة ، التى هددت الوجود الإسلامى .. فالذين قهروا التتار فى " عين جالوت " (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) هم أهل السنة .. والذين استعادوا بغداد من التتار هم أهل السنة .. بينما الخيانة التى فتحت أبواب بغداد أمام " هولاكو " (١٢١٧ـ١٢٦٥م) كانت من الآخرين !! ..

إذن .. فرصيد الجهاد والفداء والاستشهاد الذى حرر الشرق من القهر الاستعمارى القديم .. ففتح أبواب هذا الشرق أمام الإسلام .. إنما يصب فى تاريخ السنة ، الذى هو تاريخ جمهور الأمة .. وكذلك الحال

---

(١) (الأعمال الكاملة) ص١٥٨ـ١٦١ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٨م .

مع رصيد الجهاد والفداء والاستشهاد الـذى حـرر الشـرق الإسـلامى ـ مرة ثانية ـ من الصليبيين الذين أرادوا اختطاف هـذا الشـرق مـن الإسلام .

(٤)

وفى عصرنا الحديث .. وبعد أن استغل الاستعمار الغربى " التشـيع الصفوى الإيرانى " فى إضعاف الدولة العثمانية .. ثم أخذ فـى احتـلال ولايات هذه الدولة الإسلامية الجامعة ، ولاية بعد ولاية ، حتى عمت بلوى الاستعمار ـ الإنجليزى .. والفرنسى .. والإيطالى ـ أغلب بلاد الإسلام . من الذى قاد حركات التحرر الوطنى التى دفعـت هـذه الإمبراطوريـات الاستعمارية فى أرض الشرق الإسلامى ؟؟

إنهم أهل السنة ، الذين يكونون ٩٠% من تعداد أمة الإسلام .. فـهم الذين حرروا الجزائر من القهر الاستعمارى الفرنسى ، وقدموا على مذبـح حريتها قرابة المليونين من الشهداء !! وهم الذيـن حـرروا مصـر مـن الاستعمار الإنجليزى ، لتعود إلى قيادة حركات التحرر الوطنى والقومـى على امتداد ديار الإسلام فى آسيا وإفريقيا .

وهم الذين قادوا ويقودون حتى هذه اللحظات حركات التحرر الوطنى والجهاد الإسلامى علـى أرض فلسـطين .. والعـراق .. والشيشـان .. وكشمير .. والفلبين .. والصومال .. والسودان .. وأفغانستان .. إلى آخـر ميادين الجهاد والتحرر الوطنى فى عالم الإسلام .

بينما رأينا ــ ونرى ــ قطاعات مـــن الشـيعة ــ فـــى العـــراق ــ يتحالفون مع أمريكا ضد المقاومة السنية للاحتـــلال ! .. ورأينـــا التشـــيع الإيرانى يساعد أمريكا على احتلال أفغانستان ــ لأسباب مذهبيـــة ضيقـــة الأفق ــ ويصنع ذات الخطيئة مع أمريكا ضد العراق ! ..

لذلك .. فإن الربط بين بطولة " حزب الله " على أرض لبنان وبيـــن التشيع ــ كمذهب ــ هو خطأ فكرى .. ووهم لا نصيب له مـــن الصـــدق والموضوعية .. فهنا ــ فى لبنان ــ شيعة أبطال ، يحاربون الصـهيونيـــة والاستعمار .. وهناك ــ فى العراق ــ شيعة ، فتحوا أبواب العراق أمـــام الغزاة الأمريكان ، وأمام الاختراق الصهيونى ، بل ودخلوا بغـــداد علـــى ظهور الدبابات الأمريكية ! .. ويحكمون الآن من السفارة الأمريكية فـــى " المنطقة الخضراء " ! ..

بل إن فى إيران ــ التى تساعد " حزب الله " العربى ــ تشيعاً فارسياً يضطهد ، ليس فقط أهل السنة الإيرانيين ، وإنمـــا يضطـــهد ــ كذلـــك ــ الشيعة العرب والتركمان والأكراد فى إيران !! ..

فالمذهب شىء .. والموقف الوطنـــى والجـــهادى شـــىء آخـــر .. والصمود والبطولات ليست حكراً على مذهب بعينه .. ولا دين بذاتـــه .. ولا فلسفة دون غيرها من الفلسفات . كما يحاول بعض الخبثاء أن يوهمـــوا بعض الذين لا دراية لهم بحقائق الفكر والمذاهب والتاريخ .

(٥)

بل إن تاريخ الشيعة ــ كمذهب ــ لم يعرف انخراطهم فى الثورات ضد الحكام الظلمة وضد الاحتلال الأجنبى إلا فى القرن العشرين ! .. فلقد ظلوا طوال تاريخهم ــ منذ الإمام جعفر الصادق (٨٠ــ١٤٨هـ/٦٩٩ــ٧٦٥م) يعلقون الاشتغال بالسياسة والقيام بالثورة .. وبناء الدولة على عودة الإمام الغائب (٢٥٦هـ/٨٧٠م) .

وكان أهل السنة هم الذين يقودون الثورات وحروب التحرر الوطنى والقومى والجهاد الإسلامى طوال هذا التاريخ .

* وإذا كنا نمنح الإعجاب والتأييد ــ كل الإعجاب والتأييد ــ للمقاومة الباسلة " لحزب الله " فى لبنان و" لحماس " و" الجهاد " فى فلسطين .. فإننا نمنح الإعجاب للإسلام الذى يحرك الأمة ــ بالجهاد ــ ويدفعها إلى المقاومة .. وليس لمذهب من المذاهب التى يحتضنها الإسلام .. وإلا لتغيرت مذاهبنا ، بل ودياناتنا تبعا للمذاهب والديانات التى سادت وتسود فى المجتمعات التى قاومت وقاتلت الجبابرة والمستعمرين .

* ولو كان " المذهب " هو المعيار .. فهل نطلب من الشيعة المعجبين ببطولات " حماس " فى فلسطين ، أن يتحولوا من التشيع إلى السنة .. كما يفكر البعض فى التحول إلى الشيعة بسبب الإعجاب ببطولات المقاومة الشيعية فى لبنان ؟؟!

(٦)

وأخيرا .. فإن هناك حقيقة اجتماعية هامة وخطرة ، تقول :

إن الوحدة المذهبية لأى مجتمع من المجتمعات هى مصدر هام من مصادر قوة هذا المجتمع وتماسك نسيجه الوطنى ، تعينه على الصمود فى مواجهة التحديات – الداخلية .. والخارجية – .. لذلك ، فإن خلخلة الوحدة المذهبية فى المجتمعات السنية يحولها إلى مجتمعات طائفية هشة لا قوام لها ، ولا قدرة لها على الصمود فى وجه الغزاة .. ومن هنا فإن زرع خلايا شيعية فى المجتمعات السنية ، أو زرع خلايا سنية فى المجتمعات الشيعية ، هو عامل تفكيك ، يفتح الثغرات أمام الاجتياح الخارجى ، ويخلق " الأوراق " التى يلعب بها الاستعمار .

لذلك ، فإن من حقنا جميعا – بل ومن واجبنا – أن نمنح كل التأييد والإعجاب والتمجيد لجميع حركات المقاومة الوطنية والقومية والإسلامية فى لبنان .. وفلسطين .. والعراق .. وأفغانستان .. والشيشان .. وكشمير .. والصومال .. والفلبين .. الخ .. الخ . ولكن ، دون أن نقع فى الوهم الذى يزعم أصحابه أن المقاومة هى حكر على مذهب دون مذهب .. أو نقع فى خطيئة خلخلة النسيج المذهبى والاجتماعى لمجتمعاتنا العربية والإسلامية .. فحقائق التاريخ .. وحقائق الواقع أكبر وأصدق من جميع الأوهام .

إن تحويل الشعب إلى طوائف هو هدف ثابت من أهداف الاستعمار . لأن هشاشة المجتمعات الطائفية تسهل اختراقها على الاستعمار .

وأمريكا التى تحارب الشيعة فى لبنان .. هى التى تستعين بهم فى العراق .. وتدافع عنهم فى مصر !! .

وعندما جاء بونابرت (١٧٦٩ــ١٨٢١م) ليحتل مصر ســنة ١٧٩٨م راهن على الأقباط فى مصر .. وعلى اليهود فى فلسطين .. دون أن يكــن أى احترام لا للأقباط ولا لليهود .. لقد تحدث عن ما سماه " الأمة القبطيـة " فقال : " سوف يسعدنى أن أحميها .. وأعيد لها الكرامة والحقـــوق التــى لا يمكن فصلها عن الإنسان " .

أما " الثمن " الذى أراده من الأقباط ، فهو ــ بنـــص عبارتــه ــ : " مطالبة أبناء الأمة القبطية بالكثير من الحماسة والإخلاص فـــى خدمــة الجمهورية الفرنسية " !!

ولنتدبر ــ جميعا ــ كلمات بونابرت عن الأقباط ، التى يقول فيــها : " إنهم أناس لئام فى البلاد ، ولكن يجب مراعاتهم لأنهم الوحيدون الذيــن فى يدهم مجمل الإدارة للبلاد .. لقد حصلت منهم على سجلات هائلة حول قيمة الضرائب المفروضة على مصر " !! [1] .

ألا قاتل الله الطائفية .. والعبث بأوراقها .. ولعن الله الخبثاء الذيــن يسلكون سبيل المذهبية لخلخلة النسيج الاجتماعى فى مجتمعات الإســلام ، سواء أكان هذا النسيج سنيا ــ فى المجتمعات السنية ــ أو شــيعيا ــ فــى المجتمعات الشيعية ــ ..

وعلى من يفكر فى أن يتحول من السنة إلى الشيعة ــ فــى مجتمــع سنى ــ أن يدرك أنه بذلك التحول سيعزل نفسه عن محيطـــه ، ويحـــول

---

(١) صحيفة (وطنى) وثائق نشرها عادل جندى ــ تحت عنوان " المخططات الخطــيرة " فى ٢/٧/٢٠٠٦م .

جهوده ضد ذلك المحيط ! .. وكذلك الحال مع الشيعى الـذى يفكـر فـى التحول إلى السنة ــ فى محيط شيعى ــ ..

فنحن جميعا مسلمون .. وعلينا أن نوجه كل طاقاتنا لتحرير بلادنـا من القهر الاستعمارى والاستبداد الداخلى .. لا أن نفرغ طاقاتنا فى العبث المذهبى ، الذى لن يفيد منه سوى الأعداء !

(٧)

لكن .. إذا كان هذا هو منطق العقل الرشيد .. فليس كل ما يتمنـى المرء يدركه ! لقد تحدثت إلى أحد فضلاء علماء الشيعة ــ عندما التقينـا بالجزائر أواخر ثمانينات القرن العشرين ــ فى "ملتقى الفكر الإسلامى" وقلت له :

ــ لقد لاحظت ــ وأنا أتابع إصدارات الكتب الشيعية ــ كثرة مبالغـا فيها فى الكتب التى تهاجم "الوهابية" .. مع أن تعداد الوهابيين لا يعـدو بضعة ملايين ، فى أمة يقترب تعدادها من المليار ونصف المليار .. فلـم هذا الجهد الكبير الذى تبذلونه فى هذا الميدان ؟!

فكان جوابه :

ــ إنهم يكفروننا .. .

فقلت له :

ــ وماذا فى هذا ؟! .. إنهم ــ أو بعضـهم ــ يكفروننـا ــ نحـن الأشعرية والماتريدية ــ ونحن نمثل أكثر من ٩٩% من أهل السنة .. ومع ذلك لا نلقى إليهم بالا ! ..

ومنذ ذلك التاريخ ــ وعبر اهتماماتي بالمذاهب الإسلامية ــ أدركت أن الشيعة والوهابية يتصرفان ــ كليهما ــ لا بعقدة " الأقلية " و " نزعة الفرقة الناجية " .. وربما بعقلية " الدين المستقل " ، الذي يكفر أهله كل الآخرين ! ..

ولهذه الحقيقة ، نجد احتفاليهما الشديد وسعييهما الحثيث " للتحويل المذهبي " وكأنه " هداية إلى الإسلام " ! .. فالوهابيون يفرحون عندما يتحدثون عن حصادهم من " الشيعة الذين تسننوا " ، والشيعة قد جعلوا فنا من فنون تآليفهم للحديث عن الذين تحولوا من " السنة " إلى " الشيعة " حتى أصدروا ــ في هذا الفن ــ العديد من الكتب .. ومنها كتاب (المتحولون) ــ الذي بلغت أجزاؤه سبعة مجلدات !!

* * *

وإذا كانت الأوهام درجات ومستويات .. فيها البسيط .. والمتوسط .. والثقيل .. فإن ذروة الأوهام الشيعية قد تمثلت في ذلك الذي ادعاه " الكذبة ــ المرتزقة " من تحول عدد من أئمة علماء أهل السنة والجماعة وأعلامهم إلى المذهب الشيعي .. لقد ادعوا ذلك على شيخ الأزهر ، ومفتي المالكية الشيخ سليم البشري (١٢٤٨ــ١٣٣٥هـ/١٨٦٧ــ١٩١٧م) .. وادعوه على الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت (١٣٠١ــ١٣٨٣هـ/١٨٩٣ــ١٩٦٣م) .. بل وبلغ بهم " الوهم ــ الكاذب " إلى حد ادعاء ذلك على الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ــ١٣٢٣هـ/١٨٤٩ــ١٩٠٥م) !! ..

وإذا كان هذا " الفن " من فنون " الأوهـــام الكاذبــة .. والأكـــاذيب الوهمية " يحتاج في الرد عليه وتفنيده إلى دراسة خاصة .. فإننا نشير هنـــا ــ مجرد إشارات ــ إلى مكانة هذه الدعوى عن تحول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى التشيع .. مكانتها من الحقائق البدهيــة والصلبــة ، التــي تمثلت وتجسدت ــ ولا تزال متمثلة ومتجسدة ــ في حياة الأســتاذ الإمــام وفي فكره ــ المجموع والمحقق في (أعماله الكاملة) :

١ ــ لقد أعلن الشيخ محمد عبــده عــن مذهبــه ومذهــب أســتاذه جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ــ١٣١٤هــ/١٨٣٨ــ١٨٩٧م) ومذهب جمعية (العروة الوثقى) ــ التي رأسها الأفغاني .. وكـــان محمــد عبــده نــائب رئيسها ــ أعلن عن مذهبهم فقال ــ في رسالة كتبها إلى أحد أعضــاء هــذه الجمعية ــ " .. وليعلم ــ سيدي ــ أننا سنـ[ـيو]ن أشعريون أو ما تريديــون ، وأننا في أعمال العبادات دائرون بين المذاهب الأربعــة ، فمنـــا المــالكي والشافعي والحنبلي والحنفي .. "[1].

فهل يجوز أن يقال عن صاحب هذا " الإعلان " إنه تشيع ؟! ..

٢ ــ وقال الإمام محمد عبده عن مذهب أستاذه جمال الدين الأفغـــاني وهو يترجم له في المقدمة التي كتبها لرسالة (الرد على الدهريين) ــ : إن مذهبه " حنفي " كأهل أفغانستان السنة ــ وأنه كان من أشد الناس محافظــة على مذهب إمامه أبي حنيفة النعمـــان (٨٠ــ١٥٠هــــ/٦٩٩ــ٧٦٧م) .. وبنص عبارة الشيخ محمد عبده عن مذهب الأفغاني :

---

(١) (الأعمال الكاملة) جـ١ ، ص٦٩٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م .

" أما مذهب الرجل فحنيفى حنفى . وهو وإن لم يكن فى عقيدته مقلدا ، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة ، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية ــ رضى الله عنهم ــ وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض فى مذهبه ، وعرف بذلك بين معاشريه فى مصر أيام إقامته بها ، ولا يأتى من الأعمال إلا ما يحل فى مذهب إمامه ــ (أبى حنيفة) ــ . فهو أشد من رأيت فى المحافظة على أصول مذهبه وفروعه .. " [1] .

٣ ــ وإذا كانت نقطة انطلاق التشيع ، ومعيار افتراقه عن مذهب أهل السنة والجماعة ، هو رفض الشيعة إقامة الدولة والخلافة والإمامة على " الشورى " والاختيار .. وسلطة الأمة " ، وإقامتها ــ بدلا من ذلك ــ على " النص والوصية والتعيين " من السماء والوحى .. وبعبارة العلامة السيد محمد باقر الصدر :

" فإن النبى لم يمارس عملية التوعية على نظام الشورى وتفاصيله التشريعية أو مفاهيمه الفكرية ، ولم يطرح الشورى كنظام للأمة ، ولكنه أعد الإمام عليا للمرجعية وزعامة التجربة بعده ، وأودعه سنته كاملة ، وعلمه ألف باب من العلم .. " [2] .

إذا كان هذا هو رفض الشيعة لإقامة الدولة الإسلامية على نظام الشورى ، فإن الأعمال الفكرية للإمام محمد عبده مليئة بالحديث

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٤٣ .

(٢) محمد باقر الصدر (التشيع ظاهرة طبيعية فى إطار الدعوة الإسلامية) ، ص ٤٠ ، ٤٧ ، ٥٦ . تقديم وتعليق السيد طالب الحسينى الفرعى . طبعة القاهرة سنة ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م .

عن الشورى وسلطة الأمة طريقا وحيدا لإقامة الدولة والخلافة والإمامة في الإسلام .. حتى لقد خصص لهذا المبحث العديد من الفصول والمقالات [1] .

فهل يكون شيعيا من يفترق ويخالف ويناقض نقطة الانطلاق الشيعية في عقيدة الإمامة ؟!.

٤ ــ وإذا كانت الشيعة تدعى أن الرسول ﷺ قد اختار معه في " المباهلة " مع نصارى نجران سنة ١٠هـ علي بن أبي طالب .. وزوجه فاطمة .. وابنيهما الحسن والحسين .. ويذكرون ذلك في تفسيرهم قول الله ــ سبحانه وتعالى ــ : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ [2] .

فإن الإمام محمد عبده يرفض هذه الدعوى الشيعية .. ويرفض كل الروايات التي تؤيدها .. ويقول ــ في تفسير هذه الآية ــ :

" الروايات متفقة على أن النبي ﷺ اختار للمباهلة عليا وفاطمة وولديهما .

ويحملون كلمة ﴿ نساءنا ﴾ على فاطمة ، وكلمة ﴿ أنفسنا ﴾ على علي فقط .

ومصادر هذه الروايات الشيعة . ومقصدهم معروف ، وقد اجتهدوا في ترويجها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنة .

---

(١) انظر : على سبيل المثال ــ جـ١ ، ص٣٨١ــ٣٩٩ من أعماله الكاملة .

(٢) آل عمران : ٦١ .

ولكن واضعيها لم يحسنوا تطبيقها على الآية ، فإن كلمة « نساءنا » لا يقولها العربى ويريد بها بنته ، لا سيما إذا كان له أزواج ، ولا يفهم هذا من لغتهم ، وأبعد من ذلك أن يراد « بأنفسنا » على ـ عليه الرضوان ـ وهذا الإشكال وارد على قول الشيعة ومن شايعهم .. " [1] .

فهل يكون شيعيا من يتهم الشيعة بالوضع ـ أى الكذب المتعمد ـ وبترويج هذا الكذب ودسه فى كتب التفسير .. ثم ينقض ـ بالدراية ـ هذه الروايات التى وضعوها ؟!..

٥ ـ وإذا كان عمدة عقائد الشيعة فى الإمامة هى عصمة الأئمة .. فإن الإمام محمد عبده يرفض هذه العقيدة الشيعية من أساسها .. ويرفض تفسير الشيعة لـ « أولى الأمر » فى الآية القرآنية : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » [2] . بأنهم " أئمتهم المعصومون " .. يرفض الإمام محمد عبده هذه العقيدة المركزية والمعيارية فى المذهب الشيعى .. ويقول ـ فى تفسيره لهذه الآية ـ :

" وقالت الشيعة إنهم الأئمة المعصومون . وهذا مردود ، إذ لا دليل على هذه العصمة ، ولو أريد ذلك لصرحت الآية " .

وبعد رفضه لهذه العقيدة الشيعية المحورية ، يقدم تفسيره لـ(أولى الأمر) . فيقول : " إن المراد بأولى الأمر جماعة أهل الحل والعقد من المسلمين ، وهم الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند ،

---

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ٥ ، ص٣٤، ٣٥ .

(٢) النساء : ٥٩ .

وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة ".

وهو بهذا التفسير – لأولى الأمر – يجعل السلطة في الأمة عن طريق ممثليها ، وليس في الأئمة المعصومين – كما هي عقيدة الشيعة في الإمامة والسلطة والدولة – .

ثم يضرب – الإمام محمد عبده – مثلا على المؤسسات الشورية الإسلامية التي جسدت سلطة (أولى الأمر) في عهد الخلافة الراشدة – خلافة الفاروق عمر بن الخطاب – الذي يكفره الشيعة ويلعنونه! – فيقول : " .. وذلك كالديوان الذي أنشأه عمر باستشارة أهل الرأى من الصحابة – رضى الله عنهم – وغيره من المصالح التي أحدثها – (عمر) – برأى أولى الأمر من الصحابة ، ولم تكن في زمن النبي ﷺ ولم يعترض أحد من علمائهم على ذلك .. "[1] .

فهل هذا الفكر الواضح والحاسم ، الذي يرفض عقيدة الشيعة في "عصمة الأئمة" وينحاز إلى الشورى ومؤسساتها كمصدر للسلطة – وليس إلى السلطان الإلهي للأئمة المعصومين .. كما ينحاز إلى نسيج عمر بن الخطاب والصحابة – الذين يكفرهم الشيعة ويلعنونهم – في سياسة الدولة .. ويترضى عن هؤلاء الصحابة ؟؟! ..

هل يمكن أن يكون هذا الفكر الواضح والحاسم صادرا من شيعي ؟!.

---

(١) المصدر السابق : جـ٥ ، ص٢٢٩ .

٦ ـ وانطلاقاً من وسطية أهل السنة والجماعة ، يرفض الإمام محمد عبده الغلو الشيعي .. ويقول : " وغلا بعض الشيعة فرفعوا علياً أو بعض ذريته إلى مقام الألوهية أو ما يقرب منه ، وتبع ذلك خلاف في كثير من العقائد .. " (١) .

فهل إطلاق لفظ " الغلو " على مذهب الشيعة في الإمامة ، وفي علي بن أبي طالب والأئمة من بنيه ، يمكن أن يصدر عن شيعي .. تحول من السنة إلى الشيعة ؟! ..

لقد قال الشيعة الإثنى عشرية في عليّ بن أبي طالب :

" كان ـ عليه السلام ـ مُحدَّثاً .. يحدثه الملك .. " (٢) .

وقالوا عن كل إمام من أئمتهم الإثنى عشر :

" إن قوة الإلهام عند الإمام ، التي تسمى بالقوة القدسية ، تبلغ الكمال في أعلى درجاته .. ومتى توجه إلى شيء من الأشياء وأراد معرفته استطاع علمه بتلك القوة القدسية الإلهامية ، بلا توقف ، ولا ترتيب مقدمات ولا تلقين معلم .. والأئمة لم يتربوا على أحد ، ولم يتعلموا على يد معلم ، من مبدأ طفولتهم إلى سن الرشد ، حتى القراءة والكتابة ، ولم يثبت عن أحدهم أنه دخل الكتاتيب أو تتلمذ على يد أستاذ في شيء من الأشياء ، مع ما لهم من منزلة علمية لا تجارى ، وما سئلوا عن شيء من الأشياء إلا أجابوا عليه في وقته ، ولم تمر

---

(١) المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٢٧٧ .

(٢) الكليني (الكافي) ، جـ١ ، ص٢٧١ .

على ألسنتهم كلمة (لا أدرى) ولا تأجيل الجواب إلى المراجعة أو التأمل ونحو ذلك .. " (1) .

فهل رفض هذه العقيدة الشيعية فى الأئمة ، ووصفها " بالغلو " يمكن أن يصدر عن متحول من السنة إلى الشيعة ؟!..

٧ – وإذا كان الشيعة قد جعلوا للإمام سلطة دينية كهنوتية .. فهو المعصوم .. والمنصوص عليه .. والمعين من السماء – بواسطة الوحى – .. وهو مصدر الشريعة .. والحافظ لها .. والقيم عليها – بل والقيم على القرآن – .. والذى لا يجوز عليه الخطأ . بينما يجوز الخطأ والضلال على الأمة جمعاء .

ولقد قدموا الإمامة على النبوة .. بل ورفعوها فوق النبوة ، فقالوا :

" إن دفع الإمامة كفر ، كما أن دفع النبوة كفر .. ولقد امتازت الإمامة على النبوة لأنها استمرت بأداء الرسالة بعد انتهاء دور النبوة .. فالنبوة لطف خاص والإمامة لطف عام " ! (2) .

بل وجعلوا لهذا الإمام خلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون ! – وليس فقط الأمة والدولة والاجتماع ! – ورفعوا مقام الإمام فوق مقام الرسول ! .. وبعبارة الإمام الخمينى :

---

(1) محمد رضا المظفر (عقائد الإمامية) ، ص٧٦ــ٧٩ ، طبعة النجف ، دار النعمان

(2) (الكافى) جــ ١ ، ص١٦٨ ، ١٦٩ ، والطوسى (تلخيص الشافى) جــ٤ ، ص١٣١ ، ١٣٢ ، طبعة النجف سنة ١٣٨٤ هـــ .

" .. فإن للإمام مقاما محمودا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون . وإن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل " .

" وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم والأئمة كانوا قبل هذا العالم أنوارا ، فجعلهم الله بعرشه محدقين ، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله " [1] .

بل ويجعلون هذه السلطة الدينية الكهنوتية ـ التى تفوقت على السلطة الحبرية للبابوات ـ للفقيه النائب عن الإمام ـ فى عصر الغيبة للإمام الغائب ـ :

وذلك " لأن الفقيه هو وصى الرسول من بعد الإمام ، والحجة على الناس كما كان الرسول حجة عليهم . وفى عصر الغيبة يكون ـ (الفقيه النائب) ـ هو إمام المسلمين دون سواه .. وله كل سلطات الإمام ، الذى هو حجة الله .. الذى عينه الله .. فالله جعل الرسول وليا للمؤمنين جميعا ، ومن عبده كان الإمام وليا .. ونفس هذه الولاية والحاكمية موجودة لدى الفقيه .. فالقيم على الشعب بأسره لا تختلف مهمته عن القيم على الصغار إلا من ناحية الكمية !.. " [2] .

إذا كانت هذه هى السلطة الدينية الكهنوتية للإمام عند الشيعة .. فكيف يكون الشيخ محمد عبده شيعيا ، وهو الذى نقض هذا البناء الكهنوتى

---

(١) الخمينى (الحكومة الإسلامية) ، ص٥٢ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م .

(٢) المصدر السابق ، ص٧٧، ٤٩ـ٥١ .

من أساسه ؟! .. بل واعتبر نقض هذا البناء واحـدا مـن أجـل أصـول الإسلام ؟! .. إنه هو القائل :

" أصل من أصول الإسلام ــ وما أجله من أصل ــ قلـب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها . هدم الإسلام بنـاء تلـك السلطة ، ومحا أثرها ، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم .. إن الرسول كان مبلغا ومذكـرا ، لا مـهيمنا ولا مسـيطرا .. والمسـلمون يتناصحون ، وهم يقيمون أمة تدعو إلى الخير ، وهم المراقبون عليـها ، وتلك الأمة ليس لها عليهم إلا الدعوة والتذكير والإنـذار .. فليـس فـى الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه .. والله لـم يجعل للخليفة ولا للقاضى ولا للمفتى ولا لشيخ الإسلام أدنى سلطة علـى العقائد وتقرير الأحكام .. وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء هى سـلطة مدنية .. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحـد أو عبادته لربه ، أو ينازعه فى طريق نظره .. فليس فى الإسلام سـلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير والتنفير عـن الشر ، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهـم ، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم .. وليس لمسـلم مـهما عـلا كعبه فى الإسلام على آخر ، مهما انحطت منزلته فيه ، إلا حق النصيحـة والإرشاد " [1] .

---

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ، جـ٣ ، ص٢٨٥ــ٢٨٦ .. طبعـة بـيروت ، سنة ١٩٧٢م .

فهل يمكن أن يكون صاحب هذا الفكر والموقف، المناقض والهادم لعقيدة الشيعة في سلطات الإمام وسلطانه، شيعياً.. تحول من مذهب أهل السنة والجماعة إلى مذهب الشيعة الإثنى عشرية ؟!

وكيف جاز ذلك "الوهم ـ الكاذب" على من له أدنى دراية بفكر الأستاذ الإمام ؟!..

٨ ـ وأخيراً.. فإن الضربة القاصمة والقاضية في هذا النظام ـ دعوى تحول محمد عبده من السنة إلى الشيعة ـ تأتي صريحة وحاسمة.. وعلى لسان محمد عبده نفسه.. وبرواية تلميذه ومريده وموضع سره الإمام السيد محمد رشيد رضا (١٢٨٢ـ١٣٥٤هـ/١٨٦٥ـ١٩٣٥م).. روايته لرأي أستاذه محمد عبده في مذهب الشيعة.. والذي بلغ من شدته الحد الذي جعل محمد عبده يطلب من رشيد رضا عدم إذاعته في حياته!.. بل وجعل رشيد رضا يتحرج من إذاعته حتى بعد وفاة الأستاذ الإمام!..

ولنقرأ ما سجله الشيخ رشيد رضا في (تاريخ الأستاذ الإمام) عن هذا الرأي، لنعلم حقيقة موقف محمد عبده من مذهب الشيعة..

يحكي الشيخ رشيد ـ في الحوار الذي دار بينه وبين الشيخ محمد عبده حول البهائية.. ودعوى داعيتهم عباس ميرزا فضل الله (١٢٦٠ـ١٣٣٩هـ/١٨٤٤ـ١٩٢١م) ـ أنهم ـ (البهائية) ـ ما قاموا إلا "لإصلاح مذهب الشيعة وتقريبه من مذهب أهل السنة".. ثم يقول الشيخ رشيد:

" .. وذكر ـ (أى الأستاذ الإمام) ـ ما لم يأذن لى بنقله عنه فى حياته ".

وأرى الحكمة فى ترك التصريح به بعد وفاته .

وإنما أقول : إن حكمه عليهم ـ (الشيعة) ـ أشد من حكم شيخ الإسلام ابن تيمية .

وقال ـ (أى محمد عبده): " هم أحوج الفرق إلى الإصلاح .. "[1].

وإذا كان إخواننا الشيعة ـ علماء وعامة ـ يعرفون جيداً حكم شيخ الإسلام ابن تيمية عليهم ـ وهو ما لا نريد أن نذكره هنا ـ .. وإذا كان حكم الإمام محمد عبده على مذهبهم أشد من حكم ابن تيمية .. فكيف يليق بهم أن يفتحوا أبوابهم " للكذبة ـ المرتزقة " ليزيفوا عليهم موقف محمد عبده من الشيعة والتشيع ، فيدعون تحوله من السنة إلى الشيعة ، لا بدليل ... ولا قرينة .. وإنما بحكايات خرافية هي أشبه ما تكون بحكايات العجائز لصغار الأطفال !! .. ثم يكتبون ذلك ويطبعونه وينشرونه فيما صنفوا عن (المتحولين) ؟! ..

* * *

إننا لا نكتفي ـ فى هذا المقام ـ بهذا الحديث عن حقيقة موقف الإمام محمد عبده من المذهب الشيعي .. لا نريد مناقشة رأيه .. وإنما نريد

---

(1) رشيد رضا (تاريخ الأستاذ الإمام) ، جـ1 ، ص934 . طبعة مطبعة المنار ـ القاهرة سنة 1350هـ ـ 1931م ، وانظر كذلك (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ3 ، ص 560 ، 561 .

لتبيان هذا الزيف الذى يزيفه البعض على العديد من رموز علماء أهل السنة .. ونقول لهم :

إن القضاء الشيعي ملئ بالعلماء والفلاسفة والفقهاء .. فعلى العقلاء من هؤلاء العلماء الأجلاء أن يتخلصوا من " عقدة الأقلية " ، الباحثة بأى أسلوب .. حتى ولو كان المكيافيلية عن تكثير الأعداد .. وعن تشييع الآخرين للمذهب ــ ولو بالزور ــ .. ذلك لأن انتزاع " ألغام التكفير " هو السبيل لبناء وحدة الأمة .. وبهذه الوحدة يتخلص الجميع من هذه " العقد " ، التى تلجئ البعض إلى ما لا يليق ! ..

- ١٠ -

والآن .. ما العمل ؟؟

إننا ندعو الآن أن يتنادى حكماء المذاهب الإســـلامية ــ وخاصــة من السنة .. والشيعة .. والسلفية والصوفية ــ إلى " حوار حكمـــاء " ، تعقد جلساته بعيداً عن العامة والإعلام ، للاتفاق على أمرين :

أولهما : عاجل .. وهو إصدار " فتوى " جماعية ــ سنية .. شيعية .. صوفية .. سلفية ــ بتحريم وضع تهم التكفير وما يتصل به لأي مــن مذاهب الأمة ، التي يشهد أهلها أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .. تحريم وضع هذه الاتهامات على مواقع الإنترنت .. وغيرها مــن وسـائل النشر والإعلام الجمهورية ..

وثانيهما : العمل على تهذيب كتب التراث ــ لدى هــذه المذاهـب جميعها ــ وذلك بتطهيرها من كل أحكام التكفير لمــن يشــهد أن لا إلــه إلا الله وأن محمدا رسول الله ..وذلــك تــنزع هــذه الألغــام الموقوتــة والمتفجرة من ثقافة الأمة .. الأمر الذي بدونه سيظل الحديث عن وحــدة الأمة ضربا من العبث ، بل ــ وفي بعض الأحيان ــ لونــا مــن ألــوان النفاق ! .

* * *

لكن .. يبقى السؤال الأهم .. وهو :

ــ هل هناك إمكانية حقيقية لتهذيب هذا التراث الشيعي ، وتطهيره من ألغام التكفير " !؟

ــ إن جوابنا هو : نعم ، إذ نحن بدأنا حوار الحكماء هذا بعدد ــ ولو قليل ــ من ذوى الحكمة والإخلاص والوعى بالمخاطر التى تهدد وجود الأمة ، والتى تتوسل بالصراعات المذهبية لتحقيق مقاصد الأعداء ..

لقد سبق لعدد كبير من علماء الشيعة الإثنى عشرية أن راجعوا وانتقدوا الروايات التى امتلأ بها تراثهم ، والتى تتحدث عن تحريف القرآن الكريم ، وعن وجود مصحف خاص بالشيعة ، يسمى " مصحف على " أو " مصحف فاطمة ".

راجعوا هذه الروايات .. وضعفوها .. وانتقدوا المؤلفات التراثية الشيعية التى انطلقت منها ــ من مثل كتاب " الميرزا حسين النورى " [فصل الخطاب فى تحريف كتاب رب الأرباب] !! .

ولقد قدموا فى هذه المراجعة النقدية عددا من المعالم الهامة فى منهج المراجعة لهذا التراث ، ومنها :

١ــ أن أغلب هذه المرويات التى مزقت وتمزق وحدة الأمة قد جمعها ولملمها ودونها " الإخباريون " ، الذين كانت كل مهمتهم جمع وتدوين ما يسمعون من المرويات دونما نقد أو مقارنة أو دراية أو فقه أو اجتهاد .. وهذا المنهج " الإخبارى " قد مثل مرحلة فى التاريخ الفكرى لجميع المذاهب فى تاريخ الإسلام الحضارى ، الأمر الذى يوجب على أهل " الدراية " و " الاجتهاد " إعادة النظر والفحص لهذه المرويات .

٢ـ إنه لا قداسة ولا عصمة لكتب التراث التي جمعت روايات " الإخباريين " هذه .. وليس فيها ما يعلو على المراجعة، سواء للسند والرواية والرجال .. أو للمتن والدراية لمضامين ومعقولية هذه المرويات .

وفي هذا الإطار رأينا علماء الشيعة الإثني عشرية يتحدثون عن المصدر الأول للأحاديث عندهم ــ كتاب [الكافي من الأصول] للكليني ــ وهو المقابل لصحيح البخاري عند أهل السنة ــ فيقولون عن هذا الكتاب ــ الذي شاعت فيه روايات التكفير .. وروايات تحريف القرآن :

" .. وأما بالنسبة إلى [الكافي] ــ الذي ألف خلال عشرين سنة ــ فنحن لا نقول بصحة كل الروايات التي نقلها الكليني فيه ، لأن قسما منها يعد من حيث السند ضعيفًا أو مراسلا أو غير ذلك . وقسما آخر منها لا يوافق القرآن ، ويمكن أن يخدش فيه من حيث المتن .

ويقول السيد هاشم معروف الحسيني ــ في كتابة [دراسات في الحديث والمحدثين ــ ص ١٣٢ ، ١٣٤] ــ : " إن المتقدمين لم يجمعوا على الاعتماد على جميع مروياته ــ [الكافي] ــ جملة وتفصيلاً " .

ويقول أيضا : " إن أحاديث الكافي ، التي بلغت ستة عشر ألف حديث ومائة .. وتسعة وتسعين ــ ١٦١٩٩ــ حديثًا ، وهي :

* الصحيح منها : خمسة آلاف واثنين وسبعين حديثًا " ٥٠٧٢ " .

* والحسن : مائة وأربعة وأربعين حديثًا " ١٤٤ " .

* والموثق : ألفا ومائة وثمانية وعشرين حديثًا " ١١٢٨ " .

* والقوي : ثلاثمائة وحديثين " ٣٠٢ " .

* والضعيف : تسعة آلاف وأربعمائة وثمانين حديثا " ٩٤٨٠ " .

هذا من حيث السند فقط " [١] .

فإذا كان هذا هو موقف الاجتهاد الشيعي من روايات الإخباريين ، التي جاءت في أهم مصادرهم الحديثية ـ [الكافي] فإننا نكون بإزاء إمكانية حقيقية ، بل وفرصة ذهبية ، لمراجعة كل التراث المذهبي لدى مختلف الفرق والمذاهب والتيارات الفكرية ، لنزع " ألغام التكفير " من هذا التراث ، وتهذيب كتبه ، وتقديمها في الصورة التي تجعل منها عاملا من عوامل وحدة الأمة ، بدلا من أن تكون عامل تمزيق وتفريق ..

لقد راجع الشيعة الإثنى عشرية ـ بهذا المنهج ـ كل مروياتهم التي تحدثت عن تحريف القرآن الكريم ـ بما فيها مرويات [الكافي] ـ وقدموا كتاب [أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة] . الذى صدرت طبعته الرسمية في طهران ١٩٨٥م .. والذى قدمنا له وأعدنا طبعه بالقاهرة ٢٠٠٦م .

ولذلك ، فإننا أمام إمكانية حقيقية وفرصة ذهبية لحوار حكماء ، يجمع صفوة من عقلاء علماء المذاهب الإسلامية ، الذين يفقهون الواقع المعاصر مع فقههم للأحكام .. والذين يعيشون ويرابطون على ثغور المواجهة بين الأمة وبين "الصليبية ـ الصهيونية " ، ويدركون أثر الوحدة الإسلامية في الانتصار على التحديات الشرسة التي تواجه الإسلام

---

(١) الشيخ رسول جعفريان [أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة] ص ٧٩ ، ٨٠ ، تقديم د . محمد عمارة ، طبعة مكتبة النافذة ـ القاهرة سنة ٢٠٠٦ .

والمسلمين ، ولا يقدمون الارتزاق من التعصب المذهبى علـــى المصـــالح العليا للأمة الإسلامية ..

إن حوارا علميا -- صبوراً يقوم به نفر من هؤلاء العلماء الحكمـــاء ، لإنجاز هذا المقصد العظيم ـ تطهير التراث المذهبى مـــن تـــهم التكفـــير وأحكامه لمن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ـ لهو الفريضة الفكرية الأولى ، التى تقودنا إلى فريضة وحدة أمة الإسلام .

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ..

* * *

إن علينا أن نتعلم المنهج القرآنى الذى لا يعمم ولا يطلـــق الأحكـــام على الآخرين .. منهج : ﴿ ليسوا سواء ﴾ [(1)] .

* فالشيعة ليسوا سواء .

* وأهل السنة ليسوا سواء .

* والصوفية ليسوا سواء .

* والسلفية ليسوا سواء .

فعلينا أن نتوكل على الله ، ونختار المؤسســـة العلميـــة المؤهلـــة بالدعوة والرعاية لهذا الحوار .. الذى نعلق عليه وعلى نجاحـــه الآمـــال الكبار إن شاء الله ..

* * *

---

(١) آل عمران : ١١٣ .

وإذا كنا قد اضطررنا ــ فى هذه الدراسة ــ إلى تقديم نماذج من " الفواحش الفكرية " التى تتقاذفها مذاهب وتيارات فكرية عبر وسائل الاتصال الحديثة .. فإن الهدف من ذلك إنما كان (تشخيص الداء) طلبًا (للدواء) .. وليس إشاعة جراثيم هذا الداء بين العامة والجمهور .. ذلك أن تقنيات وسائل الاتصال الحديثة يجب أن توضع ــ دائمًا وأبدًا ــ فى خدمة وحدة الأمة ، بدلا من تسخيرها ــ كما هو الحال الآن .. فى إشاعة " الفواحش الفكرية " بين عامة المسلمين وغير المسلمين.

وصدق الله العظيم : ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾[1] .

والله من وراء القصد .. منه نستمد العون والسداد والتوفيق ..

* * *

---

(1) الأنفال : ٦٣ .

المحتويـــات

طبع

بمطبعة وزارة الأوقاف

الثمن ١٠٠ قرش — طبع بمطبعة وزارة الأوقاف